

نوابغ الفكر العربي

ابن زيدون

بقلم

الدكتور تشوق ضيف



دار المعارف

مجموعة نوابغ الفكر العربي

مجموعة جديدة جامعة تقدم نوابغ الفكر العربي في جميع العصور ، كما يصورهم ويترجمهم نوابغ الفكر العربي في العصر الحاضر من كل قطر وبلد ؛ فهي تعنى بالشعراء والكتاب كما تعنى بالفلاسفة والحكماء ، وتتناول أعلام اللغة كما تتناول أعلام التاريخ . وقد رأت دار المعارف أن تعهد في كل بحث من هذه البحوث إلى المختصين وذوى الخبرة والدراية فيه ؛ فيجولوا فيه ويتبعوه بباب واف للمختار من روائع المترجم له مفسر المعاني مبين الأغراض .

● ظهر منها :

- | | |
|------------------------------|--------------------------------|
| ١ - ابن رشد . | ٢٢ - ابن سينا . |
| ٢ - الجاحظ . | ٢٣ - عبد الرحمن الكواكبي . |
| ٣ - الشيخ نجيب الحداد . | ٢٤ - رفاعة رافع الطهطاوى . |
| ٤ - محمود سامى البارودى . | ٢٥ - خليل مطران . |
| ٥ - ابن زيدون . | ٢٦ - ولى الدين يكن . |
| ٦ - الشيخ ناصيف اليازجى . | ٢٧ - صفى الدين الحلى . |
| ٧ - إخوان الصفا . | ٢٨ - البهاء زهير . |
| ٨ - بشار بن برد . | ٢٩ - جمال الدين الأفغانى . |
| ٩ - بديع الزمان الهمذانى . | ٣٠ - تقى الدين بن حجة الحموى . |
| ١٠ - أبو الفرج الأصبهانى . | ٣١ - القارائى . |
| ١١ - ابن الرومى . | ٣٢ - ابن رشيق القيروانى . |
| ١٢ - الفرزدق . | ٣٣ - القاضى الجرجانى . |
| ١٣ - السهروردي . | ٣٤ - حسان بن ثابت . |
| ١٤ - الشيخ إبراهيم اليازجى . | ٣٥ - قاسم أمين . |
| ١٥ - المتنئى . | ٣٦ - ضياء الدين بن الأثير . |
| ١٦ - البحترى . | ٣٧ - يعقوب صروف . |
| ١٧ - الحسناء . | ٣٨ - المسعودى . |
| ١٨ - ابن قتيبة . | ٣٩ - أمين الريحانى . |
| ١٩ - جرير . | ٤٠ - حسن العطار . |
| ٢٠ - ابن المقفع . | ٤١ - الشريف الرضى . |
| ٢١ - أبو حيان التوحيدى . | |

ابن زُیْرُو

نوابغ الفكر العربي

٥

ابن زيرو

بقلم الدكتور شوقي ضيف

أحد من جر الأيام جراً ، وفات الأنام
طراً ، وصرف السلطان نفعاً وضراً .
ابن بسام

الطبعة الحادية عشرة



دارالمغارف

الفصل الأول

عصر ابن زيندون

١ - الحياة السياسية

لا نكاد نُشرف على القرن الخامس للهجرة الموافق للقرن الحادى عشر الميلادى حتى نرى شمس الخلافة الأموية فى الأندلس تغرب رويداً رويداً فى عين حَمَثة^(١) من الفتن والاضطرابات . وتصادف أن الجيش كان ضعيفاً ، ولم يكن مَعْدَإً لإعداداً حربيّاً كاملاً ، فاختلّ الميزان ، وتقوّض البناء الضخم الذى شادته العبقريّة الأموية بقرطبة ، وقامت على أنقاضه دول مُلوك الطوائف المعروفين فى الأندلس ، إذ نرى كل إقليم بل كل مدينة تحاول أن تسترد حريتها ، فيكون لها استقلالها ونظامها وحياتها .

وتوزعت العناصر التى كان يستخدمها الأمويون فى دولتهم هذه الممالك والدول الجديدة ، فكان للبربر الجنوب وأشهرهم بنو زيرى فى غرناطة ، وكان للصقالبة الشرق وأشهرهم خيران فى مُرُسيّة والميريّة ، وخلفه على الأولى بنو عبد العزيز أصحاب بِلَنَسِيّة وعلى الثانية بنو صماج . وكان الوسط والغرب شركة بين العرب والمولدين والبربر ، فكان فى قرطبة بنو جَهْهُور وفى إشبيلية بنو عبّاد وفى طَلِيسْطِلَة بنو ذى النون وفى بَطَلِيَسْ بنو الأفطس وفى سَرَقُسْطَة بنو هود وفى السَهْلَة بنو رَزِين .

وعلى هذه الشاكلة أصبحت الأندلس أندلسات كثيرة ودويلات صغيرة ، وهى دويلات كان يناهض بعضها بعضاً ، كما كانوا يناهضون أعداءهم من الجبليين المسيحيين فى الشمال . وغلب كثير من هذه الدويلات

(١) حمى الماء : خالطته الحمأة وهى الطين الأسود .

الإسلامية على أمره ، فقتل عنه أصحابه لفرناند ملك قشتالة وليون ،
أو دفعوا الجزية عن يدهم خاضعون . وتبع فرناند ألفونس السادس فسعر^(١)
الأندلس بحروبه وأشعلها بجيوشه ، فاستغاث المعتمد بن عباد زعيم ملوك
الطوائف وكبيرهم بيوسف بن تاشفين ملك المرابطين في المغرب ، فأغاثة بجيش
جرار هزم المسيحيين هزيمة منكرة في موقعة الزلاقة المشهورة . ولم يلبث أن
ضمَّ الأندلس كلها تحت جناحي دولته ، إذ رآها لقمة هينة سائفة .

وبذلك قضى على هذا النظام المعروف باسم ملوك الطوائف ، ولم يكونوا
ملوكاً مستبدين كما قد يتبادر إلى الذهن ، فقد اختارهم مدنيهم ، واختاروا
إلى جانبهم مجموعة من الحجاب أو الوزراء ، كانت تنظر في شئون الدولة ،
وتعرض ما تراه على رئيسها ، وكان يبلغه بدوره إلى الحاكم العام . وحكمهم من
هذه الناحية شبيه بالحكم الجمهوري .

ومن يرجع إلى قيام حكومة بني جَهْوَور في قرطبة يستطيع أن يلاحظ ذلك
في وضوح ، فإن الوزراء نهضوا بعد سقوط الخلافة الأموية بأعباء الحكم وإدارة
المدينة ، وتألف لهم مجلس برياسة أبي الحزم جَهْوَور بن محمد بن جَهْوَور ،
فكان هو الحاكم العام ، ولم يختاره الوزراء وحدهم ، بل اختارته معهم قرطبة
كلها من قضاة ورجال دين وشعب أو عامة .

وبهذه الصورة أو بشكل مقارب منها اختارت إشبيلية في أواخر العهد
الأموي وفي أثناء الفتن قاضيها محمد بن عباد اللخمي ليدبر شئونها ، وخلفه من
بعده ابنه المعتضد^(٢) ، وكان يساعده وزراء لا يستطيع أن يبرم أمراً من
دونهم ، فهم يجتمعون بانتظام وينظرون في مصالح المدينة ومراقبتها وشئونها
السياسية والحربية .

وهذا هو معنى ما نقوله من أن العرب عرفوا في الأندلس لعهد ملوك

(١) سمر النار : أشعلها .

(٢) تكثر الألقاب في عصر ملوك الطوائف ، ومن هنا قال ابن رشيقي القيرواني :

ما يزهدني في أرض أندلس أسماء معتضد فيها ومعتد
الألقاب ملكة في غير موضعها كالحرم يحكي انتفاخاً صولة الأسد

الطوائف نظاماً شبيهاً بالنظام الجمهورى ، فلم يكن نظامهم الملكى هناك نظاماً استبدادياً ، بل كان نظاماً شبيهاً إلى حد بعيد بالنظم الجمهورية . ولم تكن مجالس الوزراء وحدها هى التى تجدد من استبداد الملوك ، بل كان يجدد منها القضاء أيضاً ، إذ كان للقضاء هناك استقلال مكفول ، وكانت كلمة القاضى فوق كلمة السلطان ، وكثيراً ما رددت شهادة السلاطين والوزراء والملوك .

وليس هذا كل ما يلاحظ على الحياة السياسية فى الأندلس لهذه العهود ، فمن أهم ما يلاحظ أيضاً أن رجال الدين كان لهم نفوذ واسع على الشعب ، وهو نفوذ كان ولا شك أكثر وأقوى من نفوذ أصحاب السلطان . وثورة رجال الدين وأهل قرطبة على الحكم الرئضى شائعة معروفة . وقد اشتهرت قرطبة فى هذا العصر بكثرة فقهاءها وتزمتهم وفتنهم واضطراباتهم وجرأتهم على أمرائهم وحكامهم ، وكثيراً ما ارتفع صوت العامة معهم ، وخاصة إذا أهمل حد من الحدود .

وهذا كله يقيد من سلطان ملوك الطوائف لا فى قرطبة وحدها ، بل فى المدن الأندلسية المختلفة ، فهناك مجالس الوزراء ، وهناك القضاة ، وهناك رجال الدين ، وهناك الشعب الذى يصرخ دائماً فى وجه الملوك ووزرائهم وقضاةهم ، فكانوا يخافونه ويرهبونه ومحسبون حسابه فى كل كبيرة وصغيرة .

٢ - الحياة الاجتماعية

ليس فى العالم العربى إقليم اختلطت به الدماء والأجناس كما اختلطت بالأندلس ، فقد سكنها قديماً أقوام مختلفون من السلت واليسك والحلاقة ، واستعمر الفينيقيون واليونان بعض مدنها على بحر الروم ، ثم نزلها الرومان مستعمرين ، ونشروا فيها لغتهم اللاتينية ، كما نشروا فيها المسيحية . وتمضى الأندلس فى الاتصال بروما وإذا موجة عنيفة من القبائل الجرمانية تكتسحها ، وتقيم بها صرح دولة كبيرة ، وهى موجة القندال ، ومن اسمهم اشتق العرب كلمة الأندلس التى أطلقوها على شبه جزيرة أيبيريا كلها . وتستقبل البلاد موجة جديدة هى موجة

القوط الغربيين ، ويستمر لهم حكمها وسلطانها حتى يفتحها موسى بن نصير
يحيش مؤلف من العرب والبربر . ويمضى المسلمون في حكمها ، ويؤسس بها
عبد الرحمن الداخل دولة أموية عظيمة ، ويستعين خلفاؤه بحرس يشترونه من
فرنسا وإيطاليا وألمانيا ، وقد غلب عليه عنصر الصقالبة ، كما يستعينون باليهود
الذين كانوا مضطهدين في الأندلس قبل الفتح الإسلامي .

ومن هذه العناصر كلها كان يتألف المجتمع الأندلسي ، وهي عناصر
متباينة ، فمنها الآسيوي كالعرب ، ومنها الإفريقي كالبربر ، ومنها الأوربي : الأسباني
والإيطالي والفرنسي والألماني . وكل هؤلاء عاونوا في الحضارة الأندلسية .
وواضح أنهم يؤلفون مزيجاً مركباً من شعوب وأجناس مختلفة ، ومن أجل ذلك
يكون من الصعب استخلاص صفات عامة أو مشخصات مميزة لهذا المجتمع .

ومع هذا كله فإن من يعمن النظر فيه يجد له شخصيته في عصوره
الإسلامية المختلفة ، فهناك طوابع خاصة تطبعه وتميزه . ومن أهم هذه الطوابع
ميله الشديد إلى الثورة ، وعصر ملوك الطوائف نفسه أكبر تعبير عن هذا
الميل ، فكل مدينة بل كل قرية ترى أن الوقت قد آن لترد سلطان غيرها
عنها ، وتشق طريقها وحدها في حياتها ، فتستقل ، ولا تلبث أن تمد ذراعها إلى
جيرانها تريد أن تستولى عليهم ، فتقوم بينها وبينهم الحروب ، ويستمر المد
والجزر ، ويستمر التطاحن والعراك .

ولم يكن هذا شأن المسلمين وحدهم في الجنوب ، بل كان شأن المسيحيين
أيضاً في الشمال ، فالنزعة واحدة ومحبة سفك الدماء واحدة . ومن هنا كثر
الصراع بين المسلمين والمسيحيين ، ثم بين فئات الطرفين المختلفة .

وما من بلد عُرِفَ أهله بمصارعة الثيران معرفة الأندلسيين بها ، ومن ثم
كان يكثر الصراع بينهم وتكثر الخناجر والسيوف والسموم ، ويكثر السجن
والعذاب في غير رحمة ولا شفقة .

على أن هذا الطبع الثائر جعل الأندلسي يعتد بنفسه وبحريته ، واعتدت
معه المرأة بذلك أيضاً ، فكان لها حريتها ، وهي حرة لا يعرفها المجتمع الشرقي .

في بغداد وغير بغداد ، وإنما يعرفها المجتمع الأندلسي في قرطبة وغير قرطبة ، إذ نجد المرأة تحظى بتقدير المجتمع ، ويكون لها مجلسها الذي تستقبل فيه أعيان عصرها وأدباءه على نحو ما نعرف عن المرأة الفرنسية في القرنين السابع عشر والثامن عشر. وليس معنى هذه الحرية أن أهل الأندلس كانوا منفكين عن التقاليد الدينية . فلم يكن لرجال الدين في قطر من أقطار الإسلام ما كان لهم في الأندلس من هبة وسلطان وجلال ووقار .

وكان الأندلس بلد المتناقضات ، فهي بلد الثورة المستمرة ، وهي بلد التقاليد الدينية ، وهي في الوقت نفسه بلد الحرية ، ثم هي بلد الترف إلى أوسع ما يكون الترف . وقد وجد الترف في المشرق ، ولكنه لم يشع بين أفراد الشعب على نحو ما شاع في الأندلس ، إذ نجد كل شخص يعبُّ من كثوس الخمر واللذة مهالكاً في ذلك مسرفاً فيه إلى أبعد ما يكون التهاك والإسراف ، حتى القضاة أنفسهم ورجال الدين ، فقد كان أبو بكر بن ذكوان قاضي أبي الحزم ابن جمهور صاحب قرطبة أجلاً من اشتمل عايه عصره وقاراً ومهابة مع عدله في قضائه وإنفاذ الحكم بمقتضى الحق وإمضائه . هكذا كان مجلسه في النهار ، حتى إذا جنَّ الليل أقبل مع صحبه على القصف ، وتجاوز في ذلك كل وصف (١) . واشتهر ملوك الطوائف إذا استثنينا بني جمهور بالفناء المطلق في اللذة والترف ، ولا سيما بني عباد أصحاب إشبيلية ، فكانوا إذا تخلصوا من شئون الحكم وتقاليده نصبوا مجالس الخمر والأنس ، وأسرفوا في ذلك إسرافاً لا حد له .

٣ — الحياة العقلية

١ — العلم والفلسفة

ارتبطت الأندلس في علمها وفلسفتها بالمشرق ، فقد كانت تستورد منه نماذجها الثقافية ، تارة يذهب أهلها إليه ، ليتعلموا على يديه ، وتارة يرسل

(١) انظر في ذلك المجلد الأول من القسم الأول من الذخيرة لابن بام (طبع جامعة القاهرة)

هو إليها علماء أمثال أبي علي القالي ، وفي « كتاب نفع الطيب » للعقري
ثبتان طويلان بمن رحلوا من الأندلس إلى المشرق في طلب العلم ومن رحلوا
من المشرق إلى الأندلس ابتغاء المجد العلمى والشهرة .

وأتاح الأمويون وخاصة في عهد عبد الرحمن الناصر وابنه المستنصر للأندلسيين
فرصاً عظيمة ليقبلوا على الدراسات العلمية ، واشتهر المستنصر باستكثاره من
المدارس التي أنشأها بجانب جامعة قرطبة التي كانت تشع أضواؤها في العالم
الغربي كله . فكان المسيحيون يدرسون فيها بجانب المسلمين ، ويعودون إلى
ديارهم بأقباس من العلم والثقافة .

وعلى نحو ما عني المستنصر بالجامعة والمدارس المختلفة حولها عني بجمع الكتب
من الأقطار الإسلامية . فألف بذلك مكتبة ضخمة حوت أربعاً مائة ألف
مجلد . ويقال إن فهرسها بلغت أربعة وأربعين فهرساً ، كل فهرس اختصت
به كراسة اشتملت على عشرين ورقة .

وهذا كله كان معناه حدوث نهضة علمية وفكرية محققة . ويظهر أن
عناية الأندلسيين انصبّت أكثر ما انصبّت على الدراسات اللغوية والفقهية .
وقد اختاروا مذهب مالك وآثروه على غيره من المذاهب ، وتزخر كتب التراجم
بأسماء فقهاءهم . كما تزخر بأسماء اللغويين والنحويين والقراء والمفسرين والمحدثين .
فالأندلس سارعت إلى التزود بالثقافة الإسلامية والعلم الإسلامى المتصل
باللغة والقرآن الكريم والدين الحنيف . وتبدو هناك آثار من التزمّت الشديد ضد
الفلسفة ، ولعل ذلك هو السبب الحقيقي في تأخر الحياة العقلية الخصبية هناك .
وكان ملوكهم يعرفون فيهم هذه النزعة فإذا أرادوا تملقهم حرقوا لهم كتب الفلسفة
وما يتصل بها من قريب أو بعيد^(١) .

ومع ذلك فتحن لا نصل إلى عصر ملوك الطوائف حتى نجد الكثيرين
قد عرفوا الفلسفة وتزودوا من مواردها المختلفة في الرياضة والطبيعة والفلك والطب .
وربما كان ابن خزم خير من يفصح عن ازدواج التفكير الفلسفى بالتفكير الدينى في
هذا العصر ، وهو من المولدين « فأجداده ليسوا عرباً » وإنما هم من أعاجم

(١) نفع الطيب طبعة دوزى وزملائه ١٣٦/١ .

الفرس . وقد تخرج في جامعة قرطبة وعلى أيدي أساتذتها .
 وإذا زعمنا أنه أحد العقول الفذة التي لمعت في تاريخ العرب على مرّ
 العصور لم نُبعد ، فقد كان نشيطاً إلى أبعد حدود النشاط . وألف في مختلف
 ضروب الثقافة ، وأظهر امتيازاً وذكاء نادراً في كل ما ألف : في الفقه وكان
 ظاهري المذهب ، وفي المنطق والكلام . وفي الأصول والحديث ، وفي التاريخ
 والأنساب . وأهم كتبه وأنفسها كتابه « الفِصَل في الملل والأهواء والنحل » وهو
 يعرض فيه ، عرضاً لم يُسبق إليه ، الفرق الإسلامية المختلفة وآراءها واعتقاداتها ،
 كما يعرض الديانتين اليهودية والنصرانية ، ويتنبه لبعض مشاكل فيهما لم يتنبه لها
 العلماء إلا منذ ظهور مدارس النقد الديني في القرن السادس عشر الميلادي .
 والحق أنه الثمرة اليانعة لشجرة العلم والفلسفة في هذا العصر ، عصر ملوك
 الطوائف . وبجانبه ثمرات أخرى لجنّات آتت أكلها لا في ميدان الأندلس
 وحدها . ولا في ميدان الحياة الإسلامية العقلية وحدها . بل في ميدان الحياة
 الإنسانية كلها . فقد كان الغرب المسيحي يُقبل على قرطبة . وينهل من
 معارفها وثقافتها . وكان لذلك أثره القوي في النهضة الأوروبية الحديثة .

ب - الأدب

من المعروف أن العرب لم يدخلوا بلداً من البلاد فاتحين إلا فتحوه لغوياً
 كما فتحوه سياسياً وأبدلوه من لغته الأصلية لغتهم العربية . وكان القرآن الكريم
 هو القبس الذي يضيء في أثناء هذا الصنيع . إذ لقنوه الأمم المغلوبة .
 وبثوا في أبنائها إعجاباً لا حد له بأدبهم من شعر ونثر . سواء في ذلك من
 اعتنقوا دينهم الإسلامي ، ومن ظل على دينه القديم . ونحن لا نصل إلى
 القرن الرابع الهجري في الأندلس حتى نجد المسيحيين هناك يهجرون
 اللاتينية في طقوسهم الدينية ، ويستخدمون العربية مكانها^(١) .
 وهذا معناه أن اللغة العربية انتصرت هناك . ودخل أهل
 الأندلس . كما دخل أهل الأقاليم الأخرى . في نطاقها . فأصبحت لغتهم

(١) انظر نيكلسون : التاريخ الأدبي للعرب ص ٤١٥ .

الأدبية ، وأصبحتوا يتخللونها للتعبير عن عواطفهم ومشاعرهم . وقد عاشوا يقلدون نماذجها المشرقية ، ويتحدثون بها كأنها جزء من حياتهم ومعتقداتهم ، حتى ليقول صاحب الذخيرة لهم : « أبَوْا لإمتابعة أهل المشرق يرجعون إلى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث إلى قتادة ، حتى لو نعت بتلك الآفاق غراب أو طن بأقصى الشام والعراق ذباب ، بلحوا على هذا صنم » وتلوا ذلك كتاباً محكماً^(١) . وألف ابن عبد ربه الأندلسي «العقد الفريد» فلم يجمع فيه شيئاً من الآثار الأندلسية ، وإنما جمعه من الآثار المشرقية ، ويروى أن الصاحب ابن عباد اطلع عليه فقال عبارته المشهورة : « هذه بضاعتنا ردت إلينا^(٢) » .

وليس هناك كتاب أدبي ولا رسالة نثرية ولا ديوان ليس من كل ذلك عمل جيد إلا نقلوه إلى بلادهم فور ظهوره في المشرق . وما نقلوه في حياة أصحابه «البيان والتبيين» و«رسالة التبريع والتدوير» للجاحظ^(٣) وديوان أبي تمام والمتنبي وسقط الزند والزمريات ورسائل بديع الزمان ومقاماته ومقامات الحريري .

ومنذ القرن الرابع نحس بنشاط أدبي هائل . ويبلغ هذا النشاط أقصاه في عصر ملوك الطوائف ، إذ يجمع كل ملك حوله أكبر عدد ممكن من الأدباء والشعراء ليباهي بهم وينافس فيهم من حوله من الملوك والسلاطين . وراجت في أثناء ذلك أسواق النثر والشعر ، وتعددت هذه الأسواق في كل مدينة كبيرة سوق ، وفي كل مدينة معرض لآخر ما أحدث الكتاب والشعراء من نماذج .

وقد أخذ الكتاب يحاولون استحداث أنماط بديعة . فالف ابن شهيد رسالته «التوايح والزوايح» وهي رحلة للشاعر في عالم الجن ، وقد تأثر فيها تأثراً واضحاً بالمقامة الإليسيية لبديع الزمان الهمداني ، وكلاهما كان تلهماً لأبي العلاء في رسالة الغفران . وليس هنا موضع تفصيل هذا الرأي . ولابن زيدون رسالتان : جدية وهزلية ستعرض لهما في غير هذا الموضع .

(١) الذخيرة ، المجلد الأول ص ٢ .

(٢) معجم الأدباء لياقوت (طبعة فريد رفاهي) ٢١٤/٤ .

(٣) معجم الأدباء ١٠٤/١٦ .

ولم يتخلف الشعراء في ميدان التفوق عن الكتاب ، بل لعلمهم بترؤسهم في هذا الميدان ، إذ أسرف ملوك الطوائف في تكريمهم وبذل المكافآت والجوائز لهم ، فاستنفذوا مواهبهم في مدائحهم ، واستخرجوا من أذهانهم وبخيلاتهم درراً ثمينة وجواهر كريمة . فنهض الشعر وازدهر إلى أقصى حد ممكن . حتى ليظن الإنسان أن كل أهل الأندلس أصبحوا شعراء . وفعلاً أصبحوا كذلك . فياقوت يروى أنه سمع ممن لا يحصون عدداً أن أهل شلب يقل بينهم من لا يقول شعراً حتى الفلاح منهم إذا مر به أحد وسأله عن الشعر قرض من ساعته ما اقترحه عليه (١) .

ولم تكن شلب تتقدم غيرها من المدن الأندلسية ، فهناك مدن أخرى كانت تفوقها ، وخاصة إشبيلية بلدة المعتضد بن عباد وابنه المعتمد . فقد كانت مركز الشعر والشعراء حينئذ ، وقد تميزا جميعاً بإسرافهما في الترف واللذة . وبذلك أصبحت بلديهما مهوى أفئدة الشعراء يهون إليها من كل بلدة في الأندلس . وتصادف أن استولى النورمان على صقلية . وخرب العرب القيروان فرحل الشعراء من هذه وتلك إلى إشبيلية حيث الجوائز السنية ، وحيث الخمر واللهو والغناء .

ومعنى ذلك أن قطبي الحركة الأدبية في المغرب وهما صقلية والقيروان سقطا ، وسقط الشعراء منهما إلى إشبيلية من أمثال ابن حمديس وأبي العرب الصقلي والحصري ، فكان ذلك سبباً ثانياً في نهضة الشعر بعاصمة بني عباد ، وجرى فيها الشعر على كل لسان ، حتى لنزى غسالة تجيز شطراً من الشعر للمعتمد ، وكان قد سأل وزيره ابن عمار أن يجيز الشطر فأرتج عليه ، وبادرت الغسالة لمثاقفه ، فأعجب بها المعتمد وتزوجها ، وهي الزمكية المشهورة ، التي تمت في قصرة لو عجنحت الطين برجلها كما كانت تصنع قديماً ، فنثر لها كافوراً وعنباً كثيراً ، وصنع لها منهما ما صبت نفسها إليه . وهذا الجو المشبع بالترف واللهو هو الذي هيا لظهور الموشحات . فإن

(١) اقرأ مادة شلب في معجم البلدان لياقوت .

نمو الموسيقى فيه ونمو الغناء وما يلاحظ على أهل الأندلس من اتخاذ أنواع وألوان مختلفة من « الكرنفال » . كل ذلك أعدّ لسبق الأندلس غيرها من الأقاليم العربية في فكّ الشعر العربي ونظمه سموطاً سموطاً ، كأنها تريد أن تزواج بين هذا الشعر وبين أغانيها الشعبية . ولم تلبث أن ازدهرت الموشحات في هذا العصر : عصر ملوك الطوائف ، أو قل عصر الترف واللذة .

وبينا تشهر قرطبة في هذا العصر باتخاذ الناس فيها لخزائن الكتب نرى إشبيلية تشهر باتخاذ الناس فيها لآلات اللهو والطرب ، حيث يدفع كل شيء للرقص والغناء ، وكأن أيام الناس أعياد أو كأنها « كرنفالات » . ولم يكن هذا شأن إشبيلية وحدها ، بل كان شأن غيرها أيضاً من المدن الأندلسية مثل مالقة^(١) . فكان طبيعياً أن تونق الموشحات ، وأن يشهر فيها نفر غير قليل مثل ابن اللبانة شاعر المعتمد بن عباد ومحمد بن عبادة القزاز شاعر المعتصم بن صمادح صاحب المرية ، وغيرهما كثير .

وليس من شك في أن الموشحات دليل واضح على أن الأندلس كانت تريد أن تتميز في الشعر والفن وأن تعبر عن روعة بيئتها : روعتها العقلية والشعورية . وإنه لينبغي أن ننوّه هنا بجهد أهلها في شعر الطبيعة ، فقد رسموا فيه كثيراً من الألواح الحية الرائعة التي لا نبصرها حتى نأسى على هذه الينابيع التي جفت قبل الألوان .

(١) انظر كتابنا : الفن ومذاهبه في الشعر العربي (الطبعة العاشرة - يدار المعارف)

الفصل الثاني

ابن زيدون في عصره

١ - النشأة والمربي

وُلِدَ أحمد بن عبد الله بن زيدون بقرطبة سنة ٣٩٤ هـ / ١٠٠٣ م في بيت من بيوت أعيانها وفقهائها . فأبوه فقيه من سلالة بني مخزوم القرشيين . وجده لأمه صاحب الأحكام الوزير أبو بكر محمد^(١) بن محمد بن إبراهيم ، وكلمة صاحب الأحكام تعني أنه اشتغل بالفقه والقضاء .

فهو من بيت حَسَبٍ ونَسَبٍ ، وكان أبوه ثرياً صاحب أموال وضياع ، ويقول المؤرخون عنه إنه توفي بإلبيرة . بالقرب من غرناطة ، في توجهه إليها لتفقد بعض ضياعه . وحُمِلَ إلى قرطبة . فدفن فيها ، وإلى ذلك أشار عبادة ابن ماء السماء شاعر قرطبة الكبير في رثائه له ، فقال^(٢) :

أى رُكْنٍ من الرياسة هِيضاً وجموم^(٣) من المكارم غِيضاً
حملوه من بلدة نحو أخرى كي يوافوا به ثراه^(٤) الأريضاً^(٤)
مثل حَمَلِ السَّحَابِ ماءً طيباً ليداوى به مكاناً مريضاً

وتعبير عبادة بأنه « ركن من الرياسة » يدل في وضوح على أنه كان من

(١) ديوان ابن زيدون (طبعة كامل كيلاني وعبد الرحمن خليفة) ص ١٥٢ .

(٢) نفع الطيب (طبعة ليدن) ٤٣٠/٢ .

(٣) جموم كصبور : البئر الكثيرة الماء . وغيض مجهول غاض : نقص وقل .

(٤) الأريض : الزكي المعجب للعين .

رؤساء الدولة الأموية في قرطبة ، ويقول ابن الأبار عنه : « كان أحد حواريه أصحاب ابن ذكوان وشيخ الخليفة سليمان » وشوور بقرطبة ، ^(١) وسليمان هو سليمان المستعين الذي ولي الخلافة هناك من سنة ٣٩٩ إلى سنة ٤٠٧ للهجرة . وابن ذكوان هو أبو العباس أحمد بن محمد بن ذكوان قاضي القضاة بقرطبة حتى سنة ٤٠١ وكان يشاوره ويراجعه في فتاويه وأحكامه ، كما كان مرجع غيره من القضاة وموضع مشورتهم .

واهتم هذا الفقيه العظيم بابنه منذ نعومة أظفاره ، فأحضر له الأدباء والمثقفين ، ووصله بالعلماء والفقهاء من أصحابه ، وكان هو نفسه أول أساتذته ، إذ كان متفتناً في ضرب العلم ، بجسم الرواية والمعرفة باللغة والآداب . على أن تلمذته له لم تطل ، فقد توفي وابنه في الحادية عشرة من عمره سنة ٤٠٥ هـ / ١٠١٤ م .

ونظن ظناً أن ابن زيدون لزم صديق أبيه أبي العباس بن ذكوان ، وأفاد من علمه وفقهه ، فقد كان عالم قرطبة الأول في عصره ، وامتدت حياته بعد أبيه إلى سنة ٤١٣ للهجرة . وهو غير أبي بكر بن ذكوان قاضي أبي الحزم جمهور الذي رثاه ابن زيدون ، وظن غير واحد ممن كتبوا عنه أنه أستاذه ، وخلطوا بينه وبين ابن ذكوان الكبير ^(٢) ، وإنما كان صديقه ورفيقه في التلمذة والدراسة وتوفي سنة ٤٣٥ هـ . ومن أساتذته المهمين أبو بكر مسلم بن أحمد ^(٣) ، وكان نحويّاً أديباً متقدماً في علم العربية واللغة ورواية الشعر وكتب الأدب . وكان لتلاميذه كالأب الشفيق والأخ الشقيق مجتهداً في تبصيرهم ، متلطفاً في ذلك ، فأعجب به ابن زيدون ، وعكف على دروسه ومحاضراته .

وما لا شك فيه أن عقل ابن زيدون ليس من صنع هؤلاء الثلاثة وحدهم ،

(١) التكملة لابن الأبار ص ٤٤٦ .

(٢) صنع ذلك كور Cour في كتابه عن ابن زيدون ص ١٦ ونيكل Nykl في كتابه عن الشعر الأندلسي ص ١٠٧ .

(٣) انظر ترجمته في الصلة لابن بشكوال ص ٥٦٧ .

يل هو من صنع قرطبة وجامعتها الكبيرة ، وما كان يُلْقَى فيها من الدروس وضروب
التعاليم ، إذ كان يختلف ، كغيره من شباب عصره ، إلى العلماء والأدباء
هناك ، فيتل من معارفهم وثقافتهم ، ويأخذ من آدابهم وعلومهم ما يشغله
به فكره ، ويصقل به لسانه ، وفي ذلك يقول مفاخرًا :

ونجّلتني علمٌ توالَتْ فنونُهُ كما يتوالى في النظام سخابٌ (١)

فهو يقول إن العلم صقله بقنونه المختلفة المتسقة كما يتسق سخاب ،
وتنظم أزماره . وفي أشعاره ورسائله لُحِمَ كثيرة من هذا العلم ، وقرأ
في رسالتيه الهزلية والبلدية ترَ سيولَ المعارف التاريخية تفيض من كل صوب ،
وترَ ثقافة شاملة بالدراسات الإسلامية والفلسفية . وبجانب ذلك ترى ركامًا
من أمثال وأشعار تارة يقتبسها بنصّها ، وتارة يفكها وينثرها في أساليبه .

أما الشعر فلم يبلغ فيه ما بلغه في رسالتيه الآتيتين من تمثيل معارفه وثقافته ،
ومع ذلك لا نزال كلما قرأنا فيه وجدنا أثر الدروس المنظمة التي تلقاها في شبابه
وما حشد في ذهنه من فنون فلسفة وغير فلسفة ، يقول في بعض شعره :
كان الرضا وأعيده أن يعقب الكون الفساد
ويقول هاجيًا :

عرَضْتُ لشعري ولم تتَّعِبْ (٢) تعارضُ جوهره بالعرض

فهو يذكر الكون والفساد والجوهر والعرض مما يدل على ثقافته الفلسفية .
وكانت ثقافته بالفقه والحديث واسعة ، ورثها في بيته ، ونماها على أساتذته
عصره . ونراه يقول في بعض مدحه :

ملك يسوس الملك مته مُقَلِّدٌ روى عن أبيه فيه ما سنّه الحد
ويقول :

همامٌ أغرُّ رويتُ الفخارَ حديثًا إلى مَرُوءَةٍ (٣) مُسْتَنَدًا

والسنة والتقليد والحديث المستند كل ذلك معروف بين أهل الحديث والفقه ،

(١) نجنى : صقلني وهذبني ، والسخاب : فلاة تتخذ من أزهار عطرة ليس فيها من التلويح
والجوهر شيء .

(٢) تنب : تخجل .

(٣) السرو : الشرف .

ويظهر أنه درس علم الأصول فنحن نراه يقول لصديقه أبي حفص بن برز: وودادى لك نص لم يخالفه قياس

يشير بذلك إلى ما هو معروف بين علماء الأصول من تقديم نص الكتاب والسنة المتواترة على القياس العقلى فى الأحكام الفقهية ، وهو يقول إن النص والقياس جميعاً يتفقان فى وداده ولا يختلفان . وأكثر فى شعره كما أكثر فى نثره من ذكر الأمثال ، ويقول فى بعض مدائحه :

أغرمتى ندرُس دواوين مجده يترُفنا غريب مُجمل أومصنّف

و « الغريب المصنف » كتاب فى اللغة لأبى عبيد القاسم بن سلام . وعلى هذه الشاكلة لا نزال نستقبل فى شعره من حين إلى حين بعض الإشارات الثقافية . وطبع رسائله خاصة بهذا الطابع ، فاضطر القدماء إلى أن يعالجوها بالشرح والبيان ، حتى يقربوها للأذهان ، وحتى يزيلوا ما فيها من غموض ولهاهم .

٢ — جنبه لولاده وسجنه

ليس لدينا أخبار واضحة عن ابن زيدون فى أثناء الفتنة التى انتهت بسقوط الأمويين وقيام النظام الجمهورى فى قرطبة وعلى رأسه أبو الحزم جمهور . وكل ما يمكن أن يقال فى هذا الصدد هو ضرب من الحدس والتخمين ، ويغلب على الظن أنه لم يقف مكتوف اليدين إزاء الحوادث التى مرت بها بلدته . وفى شعره ما يدل على أنه كان فى حاشية أبى الحزم حين نهوضه للأمر ، ولكن لا ندرى أكان موظفاً كبيراً أم كان شاعراً يقلد صاحبه قصائده ودرره الثمينة .

والأخبار اللامعة فى حياة ابن زيدون الأولى لا تطوف بحياة سياسية على العموم ، وإنما تطوف بصنمه ومعبوده ولادة بنت الخليفة المستكنى الذى كان واحناً متخلفاً ضعيفاً ، مقصراً عن خلال آبائه ، ويصفه أبو حيان مؤرخ الأندلس بأنه « كان مجبولاً على الجهالة ، عاطلاً من كل خلّة تدل على فضيلة ..

معروفاً بالتخلف والركاكة « مشتهراً بالشرب والبطالة، سقيم السر والعلانية ،
أسير الشهوة عاهر الخلوة (١) » .

وفي بيت هذا الخليفة نَبَتَ ولادة، وتدل أوصاف ابن زيدون لها على أنها
كانت بيضاء البشرة، ذات شعر أشقر (٢) « ولعلها بنت «سكّرى» المورورية
الجارية الشريرة التي استبدت بالمستكفي، والتي يصفها ابن حيان بأنها كانت
خبیثة (٣) » .

ويظهر أن أبا ولادة عُنِيََ بها، فأحضر لها المعلمين والمتقنين « ولم تلبث
موادها أن استيقظت « فتفتحت الزهرة التي نبتت في تلك الشجرة « وفاح
منها أريج الشعر والفن . وكأنها كانت تنتظر موت أبيها سنة ٤١٦ هـ / ١٠٢٥ م
حتى يخلو لها الجو، فما هي إلا عشية أو صباحا ، حتى أصبح بيتها قبلة
الأدباء والشعراء ، يقول ابن بسام : « وكان مجلسها بقرطبة متددى لأحرار
المصر، وفناؤهام لعباً لجياد النظم والنثر، يَعْشَوُ أهل الأدب إلى ضوء غُرَّتِها،
ويتهالك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عِشْرِتها ، إلى سهولة حِجَابِها
وكثرة مُنْتَابِها » .

ولم تكن تصنع ذلك بوقار ، بل كانت تخلطه بدل وعيث واستهتار «
وصور ذلك ابن بسام فقال : « على أنها - سمح الله لها وتغمد زللها - اطرحت
التحصيل ، وأوجدت إلى القول فيها السبيل، بقلة مبالاتها، ومجاهرتها ببلداتها ،
كُتِبَ - زعموا - على أحد عاتق ثوبها :

أنا والله أصلحُ للمعالي وأمشي مِشْيَتِي وأتبه تِيَهَا
وكتبت على الآخر :

وأمكن عاشقي من صَحْنِ خَدِّي وأعطى قُبُلِي من يَشْتَهِيهَا (٤) »

فكان هذا العبث فيها « وكان جمالها ، وكان شعرها ، وكان غناؤها

(١) الذخيرة « المجلد الأول ص ٣٨٠ .

(٢) النفع ١٩٣/٢ .

(٣) الذخيرة « المجلد الأول ص ٣٨٠ .

(٤) نفس المصدر ص ٣٧٦ .

إذ كانت تحسن الضرب والإيقاع على الآلات الموسيقية ، كان كل ذلك يشعُّ حولها السحر والفتنة . فتهوى إليها أفئدة الشعراء من قرطبة وغير قرطبة . فلا تفتأ تنصبّاهم . وتُشعل في قلوبهم نار الهوى والهيام .

وكان ابن زيدون أحد من جذبتهم ولادة إلى فلسكها . وكان لا يزال في مَيْعَةِ الشباب . فلم تلبث أن وقعت في أشراك حبه . وبادلته هيئاً مبهياماً ، وأحسّاً كأن روحهما تألفتا . بل لكأنهما احترقتا بلظى العشق والغرام . فقادا حياة محمومة بالحب ، ليس فيها حشمة . وإنما فيها العنف والجرأة .

ووصف ابن زيدون أول لقاء لهما ، فقال : « لما قدّر اللقاء ، وساعد القضاء ، كبت إلى :

ترقب إذا جنّ الظلام زيارتي فلما رأيت الليل أكنتم للسر
وبى منك ما لو كان بالبدر مابداً وبالليل ما أدجى^(١) وبالنجم لم يسر^(٢)
فلما طوى النهار كافوره^(٣) ونشر الليل عنبره^(٤) ، أقبلت بقدر كالفصيل
وردف كالكتيب . وقد أطبقت نرجس المقل ، على ورد الخجل . فلما إلى
روض مدبج^(٥) ، وظل سجنسج^(٦) ، قد قامت رايات أشجاره . وفاضت
سلاسل أنهاره ، ودرّ الطلّ منثور ، وجيب الرّاح مزرور ، فلما شبينا نارها .
وأدركت فينا ثارها ، باح كل منا بحبه . وشكا ألم ما بقلبه ، وبتنا بليلة نجنّني
أفحوان الثغور ، فلما انفصلت عنها صباحاً . أنشدتها ارتياحاً :

ودّع الصبر محباً ودّعك ذائع من سرّه ما استودعك
يقرع السنّ على أن لم يكن زاد في تلك الخطى إذ شيعك
يا أخا البدر سناءً وسنى حفظ الله زماناً أطلعك
إن يطّل بعدك ليلى فلنكم بيت أشكو قصر الليل معك^(٧)

(١) جن الليل وأدجى : أظلم .

(٢) كافوره : يياضه ، والاستمارة واضحة .

(٣) عنبره : سواده .

(٤) مدبج : منقوش مزين بالأزهار والنوار .

(٥) السجسج : الهواء المعتدل .

(٦) النخيرة ، المجلد الأول ص ٣٧٧

وتتابع مثل هذا اللقاء في حدائق قرطبة ذات الأشجار والأزهار المعطرة
بالندى ، وقضيا هناك أوقاتاً طويلة يتعاطيان كئوس الخمر ، كما يتعاطيان
كئوس الحب والصبابة ، وكل منهما مولاه بصاحبه ، تغمره نشوة العشق .
وحدث أن ألم بصاحبها ما جعله يفارقها إلى حين فكتبت إليه :

ألا هلك لنا من بعد هذا التفرق سبيل فيشكو كل صب بما لقي
وقد كنت أوقات التزاور في الشتاء أبيت على جسر من الشوق محرق
فأجابها بقوله :

لحاً الله يوماً لست فيه بملتقى تحياك من أجل النوى والتفرق
وكيف يطيب العيش دون مسرة وأى سرور للكيب المورق

ورجعا إلى اللقاء وتشاكي الصبابة والهوى . غير أن ولادة لم تلبث أن
تبدلت له ، فتمنعت عليه ، وأذاقته بعد نعيم قربه جحيم هجرها ، فكان
يلاطفها ، ويدللها ، ويتمنى منها النظرة ، ويزعم لها أنه عبت حبها وأسير عشقها .
ولسنا ندرى سبب هذا التمتع إلا ما ساقه ابن بسام من أن ابن زيدون أشار
إلى مغنيها عتبة أن تعيد صوتاً غنته ، فغضبت ولادة غضباً يدل على حقها
وسوء خلقها ، إذ ظنت أنه يغازلها من دونها ، ومرعان ما أنشدت :

لو كنت تُنصِفُ في الهوى ما بيننا لم تهو جاريتي ولم تتخير
وتركت غصناً مثمراً بجباله وجنحت للغصن الذي لم يثمر
ولقد علمت بأنني بدر السما لكن دُهِيتُ لشوقي بالمشتري

ويسوق صاحب النفع سبباً ثانياً للقطيعة بين العاشقين ، إذ نقد ابن زيدون
بيتاً لها قالته فيه ، وهو :

سقى الله أرضاً قد غدت لك منزلاً بكل سكوبٍ هاطل الوبل مغدق
معتلاً بأن النقد لا موا ذا الرمة لقوله :

ألا يا أسلمي يا دارمى من البلى ولا زال منهلاً بجرعائك القطر

مع تقديم الدعاء بالسلامة . فقد زعم النقد بأن هذا أشبه بالدعاء على

المحبوب من الدعاء له ، وإنما المستحسن قول الشاعر :

فَسَقِ دِيَارَكَ غَيْرَ مُفْسِدِهَا صَوَّبُ الرِّبْعِ وَدِيمَةُ تَهْنِئِي (١)

ولم يكن ابن زيدون لبقاً في إيراد هذا النقد على أذن معشوقته ، فازورت عنه ، ولم تعد تغدو معه إلى الرياض والأشجار والأزهار ، فقد اكتفت بأزهار الهجر السامة . وبكى الشاعر ، وأن . ولم ينفعه بكاءه ولا أتيته .

ويعقد الباحثون في الأدب الأندلسي مقارنات بين حبهما وحب الآخرين . فدوَّى يقرن حبهما إلى حب الشاعر اللاتيني تيبولس Tibullus وصاحبه ديليا Delia ، ويقرن نيكل حبهما إلى حب جورج صائد والفرد دي موسيه (٢) . ورد كور في كتابه عن ابن زيدون المقارنة الأولى . وقال إن وجه المقارنة الممكن هو في مظاهر حياة الشعراء إذ فقد كل منهما وطنه ولم يكن موفقاً في حبه ، أما الظواهر الأدبية عندهما فختلفة (٣) .

على كل حال انصرفت ولادة عن عاشقها الشاعر الناقد الذي لم يملأ غرورها الفنى ، والذي اعتدى على سلطانها الأدبي . ولم تنتظر طويلاً لتجد عاشقاً جديداً ، فقد كان العشاق كثيرين ، ولكنها اختارت من بينهم هذه المرة لا شاعراً عاطفياً كبيراً ، بل وزيراً خطيراً هو أبو عامر بن عبدوس . وروى ابن بسام هذا التحول إليه ، فقال إنها « مرت به وأمام داره بركة دائمة تتولد عن كثرة الأمطار ، وربما استمدت بشيء مما هنالك من الأقدار » . وقد نشر أبو عامر كميته ، ونظر في عطفه ، وحشر أعوانه إليه ، فقالت له : أبا عامر ؛

أنت الخصبُ وهذه مصرُ فتدققنا ، فكلأ كما بحرُ

فركته لا يُحير حرفاً ، ولا يرد طرفاً . وسرعان ما تبعها ، وتبادلا العشق والغرام ، ولم تجد ابن زيدون توسلاته لمعشوقته وتضرعاته ، وحاول أن يسعى

(١) النفع ٥٦٤/٢

(٢) نيكل ص ١٠٦

(٣) كور ص ١٣٤

إليها من قبل ابن عبدوس ، فكتب إليه قصيدة ينذر ويتوعد ، افتتحها بقوله :
 أَثَرْتُ هَزَبْرَ^(١) الشَّرَى إِذْ رَبَضُ . وَتَبَّهَتْهُ إِذْ هَدَا فَاغْتَمَضُ .
 وما زلتَ تبسطُ مسترسلا إليه يدَ البَغَى لما انقبضُ .
 حذارِ حذارِ فإنَّ الكريمَ إِذْ اسْمُ خَسَفَا أَبَى فَاغْتَمَضُ .
 فإنَّ سكوتَ الشجاعِ النهو^(٢) سَ ليسَ بممانعه أن يعرضُ .

واستمر يحذر ويعاتب ، ويلين ويعنف . ولم يستمع ابن عبدوس إلى تحذيره وعتابه . وأيضاً لم تستمع ولادة إلى ما شكاه من آلامه وتباريح حبه . فإذا يصنع ؟ لقد عرف أن ابن عبدوس يستخدم في مراسلاته سيدة تزيينه في عيني صاحبه . وأنهما يتراسلان كثيراً عن طريقها ، فكتب إلى ولادة رسالة طويلة تُعرِّفُ بالرسالة الهزلية سخر فيها على لسانها من ابن عبدوس سخرية مرة ، وتوصل إليها أن ترسلها إليه . حتى تقطع العلائق التي نشبت ، والوشائج التي التحمت . وغضبت ولادة وحنقت عليه حنقاً شديداً . وهجته بيتين قبيحين . وصفته فيهما بأوصاف خبيثة . ولم يلبث ابن عبدوس وبعض خصومه أن نسبوا إليه أنه يشترك في مؤامرة على السلطان وتصادف أن اتهم بالاستيلاء على عقار لبعض مواليه بعد وفاته . فوضعت في يديه الأغلال . وقُدِّمَ إلى المحاكمة .

وكان القاضي الذي تولى محاكمته هو أبو محمد عبد الله بن أحمد المعروف بابن المكوي الذي ولي قضاء قرطبة في المحرم من سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة . وكانت بينه وبين الشاعر موجدة قديمة . ويقول ابن سعيد في المغرب إنه «استخف بكثير من وجوه الناس»^(٣) فلما عرضت عليه قضيته أمر توا بسجنه وشدَّ فيه .

وكتب الشاعر من سجنه قصائد بديعة يناشد فيها أبا الحزم جهوراً أن يعفو عنه ، وأن يرفع حرمة منه ، وأن لا يستمع إلى ما قاله الوشاة :
 أَتَيْنُ زَعَمَ الْوَأَشُونَ مَا لَيْسَ مَزْعَمًا تَعَدَّرُ^(٤) فِي نَصْرِي وَتَعَدَّرُ^(٥) فِي خُلْدِي

(١) الهزبر : الأسد .

(٢) الشجاع هنا : ضرب من الحيات ، والنهوض : العاص .

(٣) المغرب في حل المغرب (طبعة دار المعارف) ١/١٦٠ .

(٤) تملر : لا تجد علداً .

(٥) تملر : تلتص علداً .

ولو أننى واقعتُ عمداً خطيئةً لما كان بدءاً من سجاياك أن تُملى
فلم أسترُ حرباً^(١) «الفجار» ولم أطلع مُستَلِمةً^(٢) إلا ذقال إلى من الرُّسلِ
ومثلى قد تهفو به نشوة الصبا ومثلك من يعفو ومالك من مثل
وإني لنهاني نهائى عن التى أشاد بها الواشى ويعفلى^(٣) عفى

ولم يكتف ابن زيدون بأشعاره وقصائده الطنانة، فدبج رسالة إلى أبي الحزم
تشهر باسم الرسالة الجديّة يستعطفه فيها « وكأنا كان فى أذنى الوزير وقر
أو صم »، فذهب يقول :

قل للوزير وقد قطعتُ بملحه زمناً فكان السجنُ منه ثوابي
لم تُخطِ فى أمرى الصوابَ موقفاً هذا جزاءُ الشاعر الكذاب

وتحول إلى أبي الوليد بن أبي الحزم يمدحه « ويتخذة وسيلة إلى أبيه لعله
يعفو عنه أو يصفح، ولكن ذنبه كان عظيماً، فلم تنفتح مغاليتى سمع أبي الحزم،
وعبثاً توسل ابن زيدون بكاتبه الكبير وصديقه ابن بُرد « فقد كان الجميع
يرهبون أن يجرى اسمه على لسانهم . ولما انسدّت أمامه جميع الأبواب صم على
الهروب من هذا الشقاء ، ففرّ من سجنه ليلة عيد الأضحى « وظل فى ضواحي
قرطبة يضرع إلى أبي الحزم أن يغفر له ما قدّم مستعيناً بأستاذه أبي بكر مسلم
بن أحمد . وأخيراً عفا عنه أبو الحزم « وربما كان لابنه أبي الوليد الفضل
الأول فى ذلك ، إذ كان ابن زيدون صديقه ، وكان قريباً من نفسه .

وفى هذه الأثناء لم ينقطع حبه لولادة، بل ظل يذكرها ويعاتبها على ما كان
من هجرها، بل من غدرها وعدم وفائها ، وبيعها لحبه ببيعة بنحس ووكس ،
وهو يفسح عن ذلك فى لهفة وحرقة وحنين وشجى بالغ ، ومن خير الأمثلة
التي تصور قروحه وجروحه النفسية حينئذ قضيدته التي أرسلها إليها بعد خروجه
من السجن ، ويقال إنه بعث بها إليها من إشبيلية، وفيها يقول :
ينسمُ وبنا فما ابتلت جِوانحننا شوقاً إليكم ولا جفّت مآقينا

(١) حرب الفجار « كانت فى الجاهلية بين قريش وبنى عامر ، إذ انتهك الأخيرون

حرمة الحرم وقديسته .

(٢) مستلّمة : يعفلى : يمنى .

(٣) مسيلة : متبجّج : قتل فى حرب الردة .

٣ - في بلاط أبي الوليد بن جهور

حظى الشاعر بأمر العفو عنه « فلزم أبا الوليد بن جهور بمدحه » كأنه يريد أن يرد معروفة وجميلة إليه، فانعقدت بينهما حبال مودة أكيدة « وتوثقت عراً صداقة متينة . وكان الشاعر في أثناء ذلك يمدح أبا الحزم بالخلق المتين والسياسة الرشيدة ، والمحدد الشريف ، والرأى الحصيف :

ولم يلبث أبو الحزم أن توفي سنة ٤٣٥ هـ / ١٠٤٣ م وخلفه أبو الوليد ابنه، فعينه للنظر على أهل الدمة، ثم رفعه إلى مرتبة الوزارة، فعلا نجمه وحلق في السماء . وذهب يضفى عليه مدائحه « ويخلع عليه قصائده « ومن بديع شعره فيه :

مَلِكٌ لَدَى جَنَى الْعَيْشِ بِهِ	حَيْثُ وَرَدُ الْأَمْنُ لِلصَّادَى عَكْلٌ
يَا بَنَى جَهْوَ الدُّنْيَا بِكُمْ	حَلَيْتُ أَيَّامُهَا بَعْدَ الْعَطَلِ
إِنَّمَا دَوْلَتُكُمْ وَاسْطَةُ	أَهْدَتِ الْحَسَنَ إِلَى عِقْدِ الدُّوَلِ
نَحْنُ مِنْ نَعْمَائِكُمْ فِي زَهْرَةٍ	جَدَّدَتْ عَهْدَ الرِّبِيْعِ الْمُقْتَبِلِ
طَابَ كَانُونٌ لَنَا أَتْنَاهَا	فَكَانَ الشَّمْسُ حَلَّتْ بِالْحَمَلِ
زَهَرَتْ أَخْلَاقُكُمْ فَابْتَسَمَتْ	كَلْبَسَامُ الْوَرْدِ عَنْ لَوْلَى طَلَّ

وتفيض أشعاره في أبي الوليد بالإخلاص . وقابل أبو الوليد هذه الأشعار باتخاذها سفيراً له بينه وبين ملوك الطوائف ، لعله ينسى حبه الذى كان يعرف أنه لا يزال متقدماً بين جوانحه ، أو لعله يتسلى عن هواه . وكان ذلك سبباً في أن اشتهر اسمه ، وكثر أصدقاؤه بين ملوك عصره وشعرائهم ، كما كثر في ديوانه تشوقه إلى قرطبة ومعاهدتها وهو غريب عنها تارة في مالقة وتارة في بطليوس أو في بلنسية أو في طرطوشة ، وفيها يقول متشوقاً إلى وطنه :

غَرِيبٌ بِأَقْصَى الشَّرْقِ يَشْكُرُ لِلصَّبَا	تَحْمَلُهَا مِنْهُ السَّلَامُ إِلَى الْغَرْبِ
وَمَا ضَرَّ أَنْفَاسَ الصَّبَا فِي أَحْبَابِهَا	سَلَامٌ هَوَى يَهْدِيهِ جِسْمٌ إِلَى قَلْبِ

ويلدور في ديوانه شعر يتصل بهذه السفارات والرحلات . ومن تعرف عليهم

من الملوك والوزراء ■ وقد أعجيب خاصة بابن عبد العزيز صاحب المنسية ،
وفيه يقول :

مهما ذممتُ فإزما في ذمامك بالذم
زمنٌ كالألف الرضا ع تشوق ذكره القطيم
الله يعلم أن حبب لك من فؤادي في الصميم
ولئن تحمّل عنك لي جسم فغن قلب مقيم
وعلى شاكلة ما يذكر ابن عبد العزيز ، ويثنى عليه ، يذكر المظفر
صاحب بطليوس ، ويثنى عليه وعلى آباءه وكرّيم ضيافته له وحسن استقباله (١) .
ولم تنسه هذه الرحلات والسفارات حبه ، ولا شغلته عن هواه ، فهو دائم
الحنين والتلهف على البعد كشأنه في القرب ، لا يستطيع أن ينسى ، ولا أن
يشغل قلبه بغير صاحبه التي نفرت منه ، وأغلقت أبوابها دونه ، وإنه ليدكرها
في كل مكان ، فيقطر قلبه عشقاً وصبوة ، وأسى وحسرة ، يقول وهو في بطليوس :
خليلى لا فطرٌ يسر ولا أضحى فما حال من أمسى مشوقاً كما أضحى
لئن شاقني (شرق) العقب (٢) فلم أزل أخص بممحوض الهوى ذلك السفح
وما انفك (جوف الرصافة) مشغري دواعي ذكرى تعقب الأسف البرح
وليس ذمياً عهد (مجلس ناصح) فأقبل في فرط الولوع به نصحا
وعلى هذا النحو لم يستطع أن يغرق في لُحج رحلاته عذاب حبه ، ولم
عشقه . على أن العلاقة لم تلبث أن اضطربت بينه وبين أبي الوليد وسرعان ما
رحل عنه إلى المعتضد بن عباد صاحب إشبيلية ، ويحار من بحوا ابن
زيدون في سبب رحيله عن صاحبه . ولكن في الديوان قصيدة على رأسها هذه
العبارة « وقال عند نكبة بني ذكوان وابن حذام في سنة ٤٤٠ هـ » وفي كتاب
المغرب في حلّ المغرب » ترجمة « لأبي علي حسن (٣) بن محمد بن ذكوان
قاضي أبي الوليد ، وفيها أنه « خلط في مهاودة ابن عمه أحمد بن محمد بن ذكوان
والرّهيط الذين سمعوا في الوثوب على السلطان بقرطبة فعزله أبو الوليد في صدر

(١) الديوان ص ٢٢٧ .

(٢) ما بين أقواس أسماء لمواقع كان يرتادها مع صاحبه .

(٣) انظر المغرب في حلّ المغرب (طبع دار المعارف) ١٦٠/١ .

ربيع الأول سنة أربعين وأربعمائة ، وألزمه منزله .
فهذه النكبة التي نظمت قصيدة ابن زيدون بصدد ما إنما كانت ثورة على
أبي الوليد . ومن يقرأ القصيدة يستطيع أن يرى الشاعر فيها مضطرباً قلقاً .
يحاول أن يبرئ ساحته من إثم هذه الجماعة الثائرة . حتى ليقول :
« ما للمتاب الذي أحصفت ^(١) عِفْدَتَهُ » قد خامر القلب من تضييعه جزعاً
وأكبر الظن أنه قد اتضح سبب رحيل ابن زيدون عن قرطبة ، فقد جفاه
أبو الوليد بعد ثورة أصدقائه من بني ذكوان . وأحاطت به بعضُ الشبه .
فأنبرى في قصيدته ينفيها . ولكن ما بينه وبين صاحبه كان قد قُطِع . ففكر
في الرحيل ، وتذكر إشبيلية وصاحبها المعتضد الذي كان يجذب الشعراء والأدباء
إلى بلاطه ، فكتب أبا عامر بن مسلمة القرطبي الشاعر الأديب ، الذي هاجر
من قبله إليه ، وندبه ليعرض خدماته عليه . فلما علم المعتضد برغبته في المثل
بمحضرته رَحَّبَ به . لما يعلم من كياسته ومواهبه . وأرسل في طلبه ^(٢) .

٤ — في بلاط بني عباد

خرج ابن زيدون من قرطبة بعد أن ضاق بها وبعد أن أصبحت في عينيه
كأنها القبو المظلم . فقد انطلقاً المصباح الأخير في القبو ، مصباح أبي الوليد بن
جهور ، ولم يعد يرى إلا ظلمات بعضها فوق بعض . فتلمس الهروب .
وتلمس الطريق ، وبينما هو كذلك لمح نور المعتضد من بعيد ، فتسلل مسرعاً
إليه . قاطعاً المفاوز والمراحل . وعلم المعتضد بقدومه . فتلقاه في وزرائه
وأعيان بلده وقضاة وشعرائه ، واحتفل به احتفالاً رائعاً . وأفاض عليه
الخلع السوابغ وألقى إليه بمقاليد وزارته ، وضم إليه جميع أمور دولته ، وكأنه
رأى في تحوله إليه تحول قرطبة كلها إلى سلطانه .

ونزل ابن زيدون في بيت صديقه أبي عامر بن مسلمة ، وكان مشغولاً
بالرَّاح ، مثل أميره المعتضد . وله ألف كتاباً فيها سماه « حديقة الارتياح في

(١) أحصفت . أحكمت .

(٢) انظر في ذلك الذخيرة . المجلد الأول ، ص ٣٣٨ وما بعدها .

وصف حقيقة الراح « وأترع لابن زيدون كثوسه منها » ونظماً معاً مقطعات مختلفة فيها ، من مثل قول ابن زيدون مخطئاً له :

أدرها فقد حسن المجلس وقد آن أن تُترع الأكؤس
ولا بأس إن كان ولّى الربيع إذا لم تجد فقدة الأنفس
فإن خلال أبي عامر بها يحضر الورد والزجس

ولم يستطع ابن زيدون أن يجارى صاحبه ، فابتعد عنه « وكان ذلك سبباً لتلاوم نشب بينهما » غير أن ابن زيدون اعتذر لصديقه بأن معاقرة العقار تضره ، وأن الحمر تبرح به « وذكر أنه لا ينسب له نعيم عيشه عنده وساعات لونه »^(١)

وتبوأ مجلسه ووزارته بالقرب من المعتضد ، ولزم خومته واتصل بسياسته ، وضدّر عن قوسه فيما يحل ويبرم « ويعقد ويعزم ، نائراً فوق تاجه درر شعرة وأزهار قنه ، وربما كانت قصيدته الفائية فيه خير مدائحهم جميعاً » وفيها يقول :

همام يزين الدهر منه وأهله ملك فقيه كاتب متفلسف
يتبه بمرفاه سرير ومنبر ويحمد مسعاه حسام ومصحف
ممر القوى^(٢) لا يملأ الخطب صدره وليس لأمر فائت يتلهف
جحيم لعاصيه يشب وقوده وجنة عدن للمطيعين تزلف

ولم يترك مناسبة عيد ولا غير عيد إلا أنهز الفرصة لمدح المعتضد وبيان سياسته الحصيفة وحرابه المظفرة على خصومه ، وتصادف أن كان المعتضد سعيد الطالع في وقائعه وغزواته ، فأكثر من تهنئته ونثر الرياحين أمام مقدمه .

وما زال في المكان الرفيع منه حتى توفى المعتضد سنة ٤٦١ للهجرة ، وخلفه ابنه المعتمد ، فحاول حساده أن يعلوه عنه ، ولكنه انتصر عليهم « إذ قربته منه المعتمد ، بل رفعه إلى الذروة من مشورته ووزارته . ولما حاول غزو قرطبة مسقط رأسه كان جل اعتماده عليه .

وسارت حياة ابن زيدون في عهد المعتمد سيرة كلها مسرة وهناءة « فليس

(١) النسخ ١٨٦/٢ .

(٢) عمر القوى : مستحكم القوى مكتملها .

هناك . ما يكدر صفاء عيشه إلا بعض أمراض تطوف به ، أما ما عدا ذلك فكان كله لحظات لهُو وطرب . ويكفى أنه كان في إشبيلية . بلدة الخمر والموسيقى والغناء . وأنه كان في بلاط المعتمد الذي اجتمعت في قصوره زينة الدنيا ومباهجها ، حتى لكأن حياته . سوى أيام حربه ، انتظمت حفلات . وكأن لياليه اتسقت . كرنفالات . وفي الديوان مقطوعة يشوقه ابن زيدون فيها إلى تعاطي الحمى في قصره « المبارك والثريا » .

وطبيعى أن يسوق المعتمد ووزيره ابن زيدون ووزراؤه الآخرون وكل من اتصل بهم وعاش معهم في بلدتهم حياة لاهية ، فقد دانت لهم دنيا الأندلس . وأصبح المعتمد كبير ملوكها ، يحكم أكثر مدنها وبلدانها . ولكن الوشاة والحساد لا يزالون يلاحقون ابن زيدون ، وينفسون عليه مكانته وحظوته من المعتمد ، فيبينا هو معه في قرطبة ثارت العامة على اليهود في إشبيلية . فأشار منافسوه . وخاصة ابن عمار وابن مرتين . على المعتمد أن يرسل ابن زيدون لتهدئة الثورة . وكانت السن قد تقدمت به . وكان يشعر بمرض أخذ يلم بجسمه ألواهن الضعيف ، ولكنه خضع لأمر المعتمد . ولم يكده يصل إلى إشبيلية ، حتى ثقل عليه مرضه ، وسرعان ما لبى نداء ربه في الخامس عشر من رجب سنة ٤٦٣ للهجرة . ولم يغفل ابن زيدون في هذه الحقبة الأخيرة من حياته عن ذكر معشوقته القديمة ، بل كان دائم الوله بها ، فروحها هي التي يناجها في مطالع قصائده للمعتضد والمعتمد ، وكان يخصها بكثير من المقطوعات ينظمها من حين إلى حين . وكان لا يزال يذكر ليلى الأولى معه ، فقد بات بإحدى جنّات إشبيلية ، فقال :

وليل أدّمتنا فيه شرب مدامة إلى أن بدا للصبح في الليل تأثير
وجاءت نجوم الصبح تضرب في الدجى فولّت نجوم الليل والليل مقهور
فحزنا من اللذات أطيب طيبها ولم يعبرنا هم ولا عاق تكدير
خلا أنه لو طال دامت مسرى ولكن ليالى الوصل فيهن تقصير

فذكرى لياليها دائماً كانت في ذهنه . وكان اسمها دائماً على لسانه . وكان لا يزال يرن في سمعه ، كما كان يحيا وجهها لا يزال يترأى له في يقظته وفي أحلامه ، وما زال وفيّاً لعهدها ، باراً بحبها . حتى قرع القضاء بابه . ولفظ أنفاسه .

الفصل الثالث

جوانب ابن زيدون

١ - ديوانه

لابن زيدون ديوان كبير . نشره الأستاذان كامل كيلاني وعبد الرحمن خليفة ، وهو يجرى على النمط المعروف لدواوين الشعر العربي . من حيث الإيجاز في تقديم القصائد ، وعدم ذكر الظروف المختلفة التي نُظمت فيها ، ولا ريب في أن هذا يقيم شبكة من الصعوبات في دراسة الشاعر وشعره .

وقد تعاقبت القصائد بدون نظام . فلم يُراعَ فيها أى ترتيب تاريخي . وهذا عيب من عيوب الدواوين العربية أيضاً ، وكأن الشعراء لم يُعنوا بأن يعرضوا على قرائهم المراحل التاريخية لشعرهم ، إنما عنوا بأن يعرضوا خير ما نظموه وأجمل ما تغنّوا به ، فضاء تاريخهم الفني في غمار ما طلبوه من المجد الأدبي .

ومن هنا كانت دواوين الشعر العربي قلما تصور المحاولات الأولى التي حاولها الشاعر ، وهو يُمرن نفسه للدخول في هذا الميدان : ميدان صناعته . وكأنه رأى فيها قصوراً يهبط به عن الأفق الأعلى الذي يريد أن يخلّق فيه بين زملائه المعاصرين والسابقين . فنفاها في أكثر الأحوال من ديوانه ، ولم يُثبت منها إلا ما قد يدل على مستوى براعته المبكرة .

وهذا هو السبب في أننا إذا قرأنا لشاعر ديوانه لم نجد شعره يختلف من حيث الجودة والرداءة ، فالغالب المعتاد أن نجده يطرّد في مستوى فني واحد ، لأنه في حقيقة الأمر منتخبات روعي فيها أن تعبر أقوى تعبير عن مدى إحسانه وتفوقه في فنه .

وديوان ابن زيدون لا يشذ على هذه الأصول المألوفة في دواوين الشعر العربي ، فليس فيه ما يدل على الظروف التي أنشأ فيها هذه القصيدة أو تلك .

إلا ما قد يقال عرضاً من أنها قيلت في فلان . وبعد ذلك لا نجد إشارة دالة على تاريخ القصيدة ، كما لا نجد أى بيان عن تناول ابن زيدون لصناعته ، وكيف بدأ عمله فيها ، وكيف تقدم في هذا العمل ، فإن الديوان وكتب الأدب الأندلسية لم تحتفظ بتجربة من تجاربه الأولى سوى مقطوعة واحدة زعم بعض (١) الرواة أنه ألفها في صباه . إذ يقول :

أخذتُ ثلثَ الهوى غصباً بلى ثلثُ والمحبين فيما بينهم ثلثُ
تالله لو حلف العشاق أنهم موتى من الوجد يوم البين ما حثوا
قومٌ إذا هجروا من بعد ما وصلوا ماتوا فلإن عاد من يهوونه بُعثوا
ترى المحبين صرعى في عراضهم كفتية الكهف ما يدرون ما لبثوا
وواضح أن هذه المقطوعة ليست أولى تجاربه الفنية . بل هى ثمرة تجارب كثيرة تقدمتها قبل أن يصل إلى صنعها . وقد يكون الشئ المهم الذى تشير إليه روايتها . هو أنه بدأ حياته الأدبية شاعرٌ حُبٌ وصباة .

ومن يرجع إلى ديوانه يستطيع أن يلاحظ في وضوح أن الموضوعات الأساسية التى تتوزع شعره هى الغزل ، والمديح ويدخل فيه ضرب من الاستعطاف . ويقع الغزل فى أعلى الصفحات من حيث التاريخ والزمن الذى كان الشاعر ينظم فيه شعره ، لا لما توحى به الرواية فى مقطوعة الغزل السابقة فحسب ، بل لأن مدائحه التى تشغل أكثر الصحف فى ديوانه ليس بينها واحدة تسبق عصر أبى الحزم جهور . ونفس مدائحه لأبى الحزم إنما تبدأ مع مجته . فإذا عرفنا أن القاضى الذى مجته . وهو ابن المكوى . تولى القضاء سنة ٤٣٢ للهجرة كان معنى ذلك أن مدائحه فى أبى الحزم لا تسبق هذا التاريخ . حقاً فى الديوان إشارة إلى أنه كان يمدحه قبل مجته (٢) . ولكن الديوان لم يحتفظ بشئ يوضح هذا المديح توضيحاً كافياً .

وإذن فشعر المديح المتثور فى الديوان متأخر عن شعر الغزل ، ومثله شعر الاستعطاف ، لسبب بسيط . وهو أنه نظمه أثناء

(١) انظر المعجب فى تلخيص أخبار المغرب للمراكشى (نشر دوزى) ص ٧٦ .

(٢) الديوان ص ٦٠ .

محبته ، فطبيعي أن يتأخر هو أيضاً . ونحن نعرف أن محبته كان أثراً من آثار انصراف ولادة عنه إلى ابن عبدوس ، فبديهي أن يكون حبه لها وشعره فيها سابقاً لشعر المديح والاستعطاف المبثوث في الديوان ، ما دام هذا الشعر مرتبطاً بالسجن ، لا يتقدمه ولا يسبقه .

وليس بين أيدينا ما يدل دلالة قاطعة على السنة التي التهب فيها هذا الحب . ولكن من المؤكد أنه لم يسبق وفاة المستكني (٤١٤ - ٤١٦ هـ) ففتاته لم تفتح أبوابها للشعراء والأدباء إلا بعد زوال دولته ، بل نظن ظناً أنها لم تفتح هذه الأبواب إلا بعد سقوط الدولة الأموية سنة ٤٢٣ هـ .

ومعنى ذلك أننا نرجح أن يكون حب ابن زيدون لولادة تأخر إلى عصر أبي الحزم جهور ، حين هدأت قرطبة وهدأت ثورات البربر ، وسكن الناس إلى حياة فيها هدوء ودعة ، وفيها أمن واطمئنان ، وفيها ما يكفل الفُرَصَ لالتقاء العشاق في القصور وبين الرياض .

ومهما يكن فشعر الحب عند ابن زيدون هو أقدم ضروب الشعر التي في ديوانه ، ومن الممكن أن تُعرف أطوارُ هذا الشعر والمراحل التي تنقَلُ فيها ، لأنهما تحابا ، ثم وقعت بينهما الحفوة ، أو بعبارة أدق جفّت ولادة عاشقها . وانصرف عنه . فن الوجهة النفسية اختلف موقفه . إذ كان ينعم بالحب وأصبح يَقْصُ بِالْهَجَر ، فلا بد أن يختلف شعره ، كما تختلف النعمة المفرحة من النعمة المحزنة . ونحن نستطيع أن نضع في الدور الأول كل المقطوعات التي لا تعبر عن تباريح الهجر ولا عن عذاب الصدود ، إنما هي أنفاس الحب الحارة تتحول شعراً على نحو ما نرى في قوله :

وشادن أسأله قهوةً فجادَ بالقهوة والورد
فبتُ أسقى الراح من ريقه وأجتنى الورد من الخد

وقوله :

يا مخجل الغصنَ الفينان إن خطراً وفاضح الرّشّ الوسان إن نظراً
ما كان حُبُّكَ إلا فتنةً قد رت هل يستطيع الفتي أن يدفع القدرًا

وقوله :

لقد رَأَيْتُكَ الأمانى رضا فلم تتعدَّكَ
يا ليت مالكِ عندي من الهوى لى عندكَ
فطال ليلكِ بعدى كطول ليلى بعدك
الدهرُ بعدى لما أصبحتُ فى الحب عبدكُ

وقوله :

لعمري لئن قلتَ إليكِ رسائلِ لأنت الذى تنفى عليه تذبُّ
فلا تحسبوا أنى تبدلتُ غيركم ولا أن قلبى من هواك يتوبُّ

وقوله :

لئن كنتَ فى السن تَرِبَ الهلالِ لقد فُقتَ فى الحسنِ بَدَرَ الكمالِ
لقد بَلَغْتَنى دواعى هواك إلى غايةٍ ما جرتُ لى ببالِ
فقل للهوى يَجْرِ مِلءَ العنانِ فيدان قلبى رَحِيبُ المجالِ

وقوله :

هل لداعيكِ مُجِيبُ أم لشاكيكِ طيبُ
يا قريباً حينَ يَنأى حاضراً حينَ يَغيبُ
كيف يَسْلوكِ حُبُّ زانه منك حبيبُ
إنما أنتَ نَسِيمُ تتلقاه القلوبُ

فهذه وما يماثلها فى ديوانه مقطوعات نظمها وهو يرتشف رحيق السعادة من حبه ، وتنعم عيناه بحبيبه ووصلها وقُرْبها .

وتأتى وراءها أشعار أخرى فى الحب ليس فيها هناءة ولا نشوة ، وإنما فيها الحرقه واللوعة ، وفيها الشكوى من الوشاة وهجر الحبيب بعد الوصال ، والدنيا مظلمة من حول العاشق وعيناه مغرورقتان بالدموع ، على شاكلة قوله :

أرخصتِنى من بعدما أغلَيْتِنى وحطَطتِنى ولطالما أغلَيْتِنى
كنتِ المنى فأذقتِنى غُصص الأذى يا ليتنى ما فهتُ فيكِ بِلَيْتِنى

وقوله :

يا غزالاً أصارني
 إنني مذ هجرتني
 لبت حظي إشارةً
 ليس لي عنك مذهبٌ
 موثقاً في يد المحن
 لم أذُق لذة الوسن
 منك أو لحظةً عن (١)
 فكما شئت لي فكن

وقوله :

أيوحشني الزمانُ وأنت أنسي
 وأغرسُ في محبتك الأمانى
 لقد جازيت غدرًا عن وفائي
 ولو أن الزمانَ أطاع حكى
 ويُظلمُ لي النهارُ وأنت شمسي
 فأجتنى الموتَ من ثمراتِ غرسي
 وبعث مودتي ظلماً بيبخس
 فدينك من مكارهه بنفسي

وقوله :

كم ذا أريد ولا أرادُ
 أصنى الودادَ مدلاً
 يقضى عليّ دلاله
 كيف السلو عن الذي
 ملك القلوب بحسنه
 يا هاجري كم أستفيع
 أفلا ريت لمن يبي
 إن أجن ذنباً في الهوى
 كان الرضا وأعيدُهُ
 يا سوء ما لقي الفؤادُ
 لم يصف لي منه الودادُ
 في كل حين أو يكادُ
 مثواه من قلبي السوادُ
 فلها إذا أمر انقيادُ
 دُ الصبر عنك فلا أفادُ
 ت وحشو مقلته السهادُ
 خطأ فقد يكسبوا الجوادُ
 أن يعقب الكون الفسادُ

فالدنيا عابسة من حوله ، وكبدته تنفتحت حسرة ، وقلبه يتقطع ألماً ، وكأنما
 أغمدت فيه خنجرًا ، وهو ينادى بأعلى صوته ولا من سميع ، ويجار بالدعاء
 ولا من مجيب . ويظل كاسفاً مهووراً وعاشقاً محزوناً ، ويدخل السجن ، وتشتد

به تباريح حبه ، وتشتد الغياهب والظلمات من حوله . ويستمر يشجينا بِشدّوه
بائساً لواعج عشقه .

وواضح أن هذه الصورة من غزله تباين الصورة الأولى . فقد فرت منه
السعادة التي كان ينشدّها ولم يعد له منها إلا عذاب السجن والألم والفراغ ، فقد
هامت صاحبتة بآين عبدوس ، وسدت منافذ سمعها أمام شعره . فلم تعد تنفعه
تعاويذه وتماثمه .

وخرج من السجن . وهو يكاد يموت كددا ، فالعاشقة قد طارت عن
عشّ غرامها إلى الأبد ، وأصبح من المستحيل أن تعود إليه . ومع ذلك أمسك
بقيثارته . وتغنى عليها ألحاناً شجية اعتصر فيها قلبه وفؤاده . وأشفق عليه أبو الوليد
ابن جهور . فقد ألقى إليه بمقاليد دولته . وجعله وزيراً ومستشاراً له . ولا تزال
العبرات في عينيه . فعيّنه سفيراً بينه وبين ملوك الطوائف لعله يتعزى أو يتسلى .
ولكن الحنين كان يعاوده من حين إلى حين ، فكان يفرغ إلى قيثارته يبيكى
معاهد قرطبة . وهو إنما يبيكى حبه الدائر ، وحظه العائر .

وعلى هذه الشاكلة يمكن أن يوزع شعر الحب عند ابن زيدون على أدوار
ثلاثة : دور وصله ودور هجره ودور يأسه أو دور الذكري . ويتنظم في
الدور الأخير مقدمات مدائحه . ويغلب فيها أن يجعل صاحبتة محصنة منيعة .
تحميها الرماح والسيوف ، فلا يستطيع أحد الدنو منها ولا القرب من دارها .
إلا أن تزهق نفسه ويستباح دمه .

وإذا كان من الممكن أن يوزع غزله على أدوار ثلاثة في هذه الصورة التي
رسمناها ، فمدائحه تتوزعها أيضاً أدوار ثلاثة تقابلها . فقد بدأ مدائحه في
السجن ، يرسل بها إلى أبي الحزم مستعتباً مستعطفاً . كما يرسل بها إلى ابنه أبي الوليد
وهذا هو الدور الأول من مدائحه ، وهي تأخذ شكل استعطاف واسع .
ويمكن أن تلحق بهذا الدور الفترة التي قضاها بعد فراره من سجنه وقبل استصدار
العفو عنه ، كما تلحق به قصيدته لأبي حفص بن برد وأستاذة أبي بكر مسلم
ابن أحمد . وتردّ حرية الشاعر إليه ، وما يلبث أبو الحزم أن يتوفى ويخلفه ابنه
أبو الوليد ، فيقرّب الشاعر منه . ويجعل له النظر على أهل الدمة ، ولا يزال

يَرَقِي بِهِ « حَتَّى يُسَلَّمَ إِلَيْهِ مَقَالِيدُ دَوْلَتِهِ . وَفِي هَذِهِ الْحَقِيقَةِ يَبْدَأُ الدَّوْرَ الثَّانِي مِنْ مَدَائِحِهِ ، إِذْ يَمْدَحُ أَبَا الْوَلِيدِ مَدْحًا فِيهِ إِخْلَاصٌ ، وَلَعَلَّنَا لَا نُسَبِّعِدُ إِذَا قُلْنَا إِنَّ قَصِيدَتَهُ الْكَافِيَّةُ :

مَا لِلْمُدَّامِ تُدِيرُهَا عَيْنَاكَ فَيَمِيلُ فِي سَكْرِ الصَّبَا عِطْفَاكَ
هِيَ أَوَّلَى قِصَائِدِهِ الَّتِي مَدَحَ بِهَا بَعْدَ اعْتِلَالِهِ عَرْشَ قَرْطَبَةِ ، فَفِيهَا فَرَحَةُ الصَّدِيقِ بِصَدِيقِهِ ، الَّذِي سَيَحْقِقُ لَهُ آمَالَهُ . وَعَيْنُهُ أَبُو الْوَلِيدِ عَلَى أَهْلِ الذِّمَّةِ ، وَكَأَنَّ هَذِهِ الْوَلِيْفَةَ كَانَتْ دُونَ مَا يَصْبُو إِلَيْهِ ، فَكُتِبَ قَصِيدَةً يُمْكِنُ أَنْ نَسْمِيَهَا « مُلْتَمَسُ الْوِزَارَةِ » وَفِيهَا يَقُولُ :

فِدَيْتَكَ إِنِّي قَاتِلٌ فَعَرَّضُ
مُنَى كَالشَّجَا (١) دُونَ اللَّهَاءِ تَعَرَّضْتُ
لِعَمْرِكَ مَا لِلْمَالِ أَسْعَى فَإِنَّمَا يَرَى الْمَالُ أَسْنَى حِظَّهُ الطَّبِيعُ (٢)
وَلَكِنْ لِحَالِ إِنْ لَبِسْتُ جَاهِلًا كَسَوْتِكَ ثَوْبَ النَّصِيحِ أَعْلَامُهُ الْحَمْدُ
وَأَنَالَهُ أَبُو الْوَلِيدِ أَمْنِيَّتَهُ ، وَلَقَبَهُ « ذَا الْوِزَارَتَيْنِ » وَنَدَبَهُ لِلِسَفَارَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ ، فَكَانَ يَمْدَحُهُمْ وَيُثْنِي عَلَيْهِمْ ، وَيَذْكُرُ لَهُمْ حَسَنَ اسْتِقْبَالِهِمْ وَجَمِيلَ ضِيَاقِهِمْ .

وَلَا يَزَالُ فِي هَذَا الدَّوْرِ الثَّانِي مِنْ مَدَائِحِهِ ، حَتَّى تَوَجَّهَ إِلَيْهِ تَهْمَةُ الْإِشْرَاقِ فِي مَثَارَةِ بَنِي ذِكْوَانَ عَلَى السُّلْطَانِ ، وَلَا تُثَبِّتُ إِدَارَتَهُ ، وَلَكِنْ تَقُومُ جَفْوَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِي الْوَلِيدِ « فَيُؤَلِّقُ وَجْهَهُ نَحْوَ إِشْبِيلِيَّةِ . وَهَنَاقَ يَبْدَأُ الدَّوْرَ الثَّالِثَ مِنْ مَدَائِحِهِ الَّتِي جَعَلَهَا خَالِصَةً لِلْمُعْتَصِدِ وَابْنِهِ الْمُعْتَمَدِ .

وَمَعْنَى هَذَا كُلِّهِ أَنَّ تَرْتِيبَ الْمَدَائِحِ فِي الدِّيَوَانِ يُمْكِنُ أَنْ يُعَالَجَ فِي يُسْرٍ وَسَهُولَةٍ . وَفِي الدِّيَوَانِ قِصَائِدُ وَمَقْطُوعَاتُ تَتَّصِلُ بِأَهْلِ قَرْطَبَةِ ، بَعْضُهَا يُمْكِنُ أَنْ يَلْحَقَ بِالدَّوْرِ الْأَوَّلِ مِنَ الْمَدَائِحِ ، أَوْ قَلَّ بِالِاسْتِعْطَافِ كَشَعْرُهُ فِي ابْنِ عَبْدِوَسٍّ وَجَدَهُ لِأَمِّهِ الْوَزِيرَ مُحَمَّدَ بْنَ مُحَمَّدَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ ، وَبَعْضُهَا يُمْكِنُ أَنْ يَلْحَقَ بِالدَّوْرِ الثَّانِي كَشَعْرُهُ فِي بَنِي ذِكْوَانَ ، وَيَدْخُلُ فِي هَذَا الدَّوْرِ شَعْرُهُ فِي مُلُوكِ الطَّوَائِفِ وَوُزَرَائِهِمْ ،

(١) الشَّجَا : مَا يَمْتَرِضُ فِي اللَّهَاءِ أَوْ الْخَلْقِ .

(٢) الطَّبِيعُ : النَّيْمُ .

وكل ما نظمه في طرطوشة أو بطلْيوس أو بلنسية . أما شعره في بعض أهل
إشبيلية من مثل أبي عامر بن مَسْلَمَة وأبي بكر بن القصيرة فيلحق بالدور الثالث
من مدائحه .

على أنه ينبغي أن نشير إلى أن في الديوان مسمّطين ، ومقطوعات خفيفة من
الألغاز والأحاجي ، وكان المعتمد يحاوبه ويحاوره فاكثراً لألغازه ومعانيه ،
وكانها كانت حيلة يصنعها ابن زيدون لغرض التسلية وقتل الوقت .

٢ — شاعريته

يقع ابن زيدون في الذروة بين شعراء الأندلس من حيث ملكات التعبير
الأدبي وما صاحبها من إبداع فني ، وقد أشاد به كل من تحدثوا عنه أو ترجموا
له من السابقين ، وخاصة ابن بسام في الذخيرة إذ يقول : « له شعر ليس للسحر
بيانه ، ولا للنجوم الزهر اقترانه » . وقد تعاقب الكتاب والمؤرخون يُثَنُّون على
جمال ديوانه ورونق أساليبه ، فالجميع مشدوه لروعة نظمه وشدة أسرهِ . ونحن
لا نرجع إلى ديوانه ونقرأ القصيدة الأولى فيه التي وَجَّه بها إلى أبي حفص بن بُرد
من يحبه حتى يفجأنا هذا النسج البديع :

ما على ظنيّ باسٌ	يجرح الدهرُ ويأسو
ربما أشرف بالمرُ	على الآمالِ يأسُ
ولقد ينجيك إغفا	لُ ويُرْدِيكَ احتراسُ
والمحاذيرُ سهامٌ	والمقاديرُ قياسُ
ولكم أجْدَى قعودٌ	ولكم أكْدَى القماسُ
وكذا الدهرُ إذا ما	عَزَّ ناسٌ ذلَّ ناسُ

ومن هذه النغمة الأولى الصافية النقية تنصب بقية النغمات في الديوان ،
فليس في موسيقاه وألحانه أي شائبة ، إنما فيهما الخفة والرشاقة ، ولذلك كانوا

يشبهونه بالبحترى ، بل كانوا يسمونه بحترى المغرب لسلاسة شعره وانسيابه كأنه الماء العذب السلسيل .

وليس من شك في أن هذا يدل على أنه طَبَعَ فنّه بالطوابع العربية الأصلية ، فقد أخذ نفسه على ما يظهر بثقافة واسعة للشعر الذى سبقه من العصر الجاهلى إلى عصره . ولم يدخر وسعاً في قراءة دواوينه والوقوف على أسرارهِ ، وكأنه كان يشعر شعوراً قوياً بأن الشعر ينبغى أن لا ينفصل قديمه عن حديثه . ففرع إلى جداوله المختلفة ينهل منها ويعبّ ، محتذياً بأمثلة سابقيه . غير خارج ولا تآثر على قواعدهم وقوالهم الفنية المرسومة .

ولم يلبث أن نفذ إلى موسيقاه الرائعة ، وكأنما حفزه ما قرأه لكبار الشعراء أمثال البحتري وأبى نواس وأبى تمام وابن المعتز والمتنبى وأبى العلاء إلى أن تكون له موسيقاه . ويكون له عزفه وإيقاعه وتكون له قواله الحية الجذابة .

وطبّعى لهذا الشاعر الذى اختبر أوتار القيثارة العربية أدق اختبار ، واستمع إلى شذوها ونغماتها أدهف استماع . أن يشتد تأثيره بمن سبقوه ، وأن يستعير منهم في الحين بعد الحين . وخاصة أن هذا الصنيع كان ضريبة مفروضة على الشعراء الذين تقدموه جميعاً لا عند المغمورين منهم ، بل عند أفذاذهم ممن سميناهم .

فلذا خلف من بعدهم ابن زيدون ، وجرى على رسمهم . وعكف على نماذجهم . واحتذى أمثلتهم . لم يكن خارجاً على العرف الشائع . بل كان مطرداً مع سياق صناعته وأسلوبها الذى اصطلاح عليه الشعراء عامة .

ووقف ابن بسام طويلاً عند هذا الجانب من شعره . فكاد لا يترك بيتاً له التفتّح منناه أو لفظه من شعر غيره إلا نبّه عليه . وهو في العادة يعرض القصيدة الجيدة من قصائده ، ثم يعود إليها بالتصفح . فكلماً وجد معنى أو لفظاً مشتركاً بينه وبين من سبقوه دلّ على موضع أخذه وموطن استعارته . فمن ذلك قصيدته الفاتية التى مدح بها المعتضد صاحب إشبيلية ، وهى أجمل وأروع مدائحه جميعاً ، فقد وقف في نسيبها عند هذين البيتين :

وما وَلَعِي بِالرَّاحِ إِلَّا تَوْهِيمٌ لَظَلَمَ^(١) بِهِ كَالرَّاحِ لَوْ يُتَرَشَّفُ
وَيُذَكِّرُنِي الْعِقْدَ الْمَرِنَ جَمَانُهُ مَرِنَاتُ وُرُقٍ فِي ذُرَى الْأَيْكِ تَهْتَفُ
فلاحظ أنه قلب في البيت الأول قول المتنبي :

وما شَرَّقِي بِالماءِ إِلَّا تَذَكُّرٌ لِمَاءٍ بِهِ أَهْلُ الْحَيْبِ نَزُولُ
أما البيت الثاني فنسخ فيه قول أبي تمام :

وبالْحُلِيِّ إِنْ قَامَتْ تَرْتَمُ فَوْقَهَا حَمَامٌ إِذَا لَاقَى حَمَاماً تَرْتَمَا
واستمر فوقف في المديح عند هذه الأبيات الثلاثة :

طَلَاقَةٌ وَجْهٍ فِي مَضَاءٍ كَمَثَلِ مَا يَرُوقُ فِرْنَدُ السِّيفِ وَالْحَدُّ مَرْهَفُ
وَلَمَّا حَضَرْنَا الْإِذْنَ وَالْدَهْرُ خَادِمٌ تَشِيرُ فَيُضْمَضِي وَالْقَضَاءُ مَصْرَفُ
وَصَلْنَا فَقَبَّلْنَا النَّدَى مِنْكَ فِي يَدٍ بِهَا يُتَلَفُ الْمَالُ الْجَسِيمُ وَيُخْلَفُ
ولاحظ أنه استعار البيت الأول من قول البحرى :

وَيَحْسُنُ دَلُّهَا وَالْمَوْتُ فِيهِ كَمَا يَسْتَحْسِنُ السِّيفُ الصَّقِيلُ
كما استعار البيتين الثاني والثالث من قوله أيضاً في الهيبة :

وَلَمَّا حَضَرْنَا سُدَّةَ الْإِذْنِ أَخَّرْتُ رِجَالَ عَنِ الْبَابِ الَّذِي أَنَا دَاخِلُهُ
فَأَقْضَيْتُ مِنْ قَرَبٍ إِلَى ذِي مَهَابَةٍ أَقَابِلَ بَدْرِ التَّمِّ حِينَ أَقَابِلُهُ
وَلَمَّا تَأَمَّلْتُ الطَّلَاقَةَ وَانْثَى إِلَى بَيْشِرٍ أَنْتَنِي مَخَايِلُهُ
دَنَوْتُ فَقَبَّلْتُ النَّدَى مِنْ يَدَا مَرِيٍّ كَرِيمٍ بِحَيَاةٍ سَبَاطٍ^(٢) أَنَامَلُهُ

وهذه الاستعارات كلها تدل على أن ابن زيدون لم يكن ينقل عن سابقه
« طبق الأصل » بل كان يتصرف تصرفاً على هيئات وصور مختلفة . وهذا من
حقه هو وغيره من الشعراء إذ يتعاورون على موضوعات ومعاني مشتركة ، فلا
بأس أن يُفيد كل منهم من سابقه ، وأن يحتذى في بعض شعره على مثال
موروث ، ما دام يحسن عرضه . وما دام يخرج عن القالب القديم إلى قالب

(١) الظلم : بريق الأسنان .

(٢) سباط : جمع سبط . نقيض الجعد . ويقال سبط اليمين والبنان . كريم .

له جديد ، إذ تصبح المعاني كالْعُمْلَةِ تتفق في المعدن ، وتختلف في طريقة الضرب وهيئة الصورة بين بلد وبلد وقطر وقطر .

وكان ابن زيدون يحسن ضَرْبَ الخواطر والمعاني القديمة أو الموروثة في عُمْلَةِ أندلسية جديدة ، فيها جمال الفن وبهجة الشعر ، وما يُفصح عن أصالته وشخصيته ، ونفس القصيدة التي تنتسب إليها أبياته السابقة من أبداع ما نظمه شعراء الأندلس في عصورهم المختلفة . ويستطيع القارئ أن يعود إليها في النماذج المنتخبة ليرى أنها مثل رفيع من أمثلة النَسْجِ التماسك والسبك الرائع . ولن يضمره بحال أن يكون قد استعار فيها معنيين أو ثلاثة أو أربعة من غيره . فذلك شأن الشعراء جميعاً من قبله ، إذ يردد كل منهم قول عنبرة الشاعر الجاهلي المشهور « هل غادر الشعراء من مُردِّمٍ » .

ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن هذا الصنيع الذي استمر بين أصحاب الشعر العربي مهما غربوا أو شرقوا كان أهم الأسباب في المحافظة على إطراره العام ، فقد ظل امتداداً لماض بعيد وتعبيراً عن حاضر قريب ، وظل الشعراء يجمعون جذائذاته الفنية الموروثة ، ويعيدون صنعها ، مضيفين ما يعبر عن مواهبهم وأخيلهم واستجاباتهم للحياة التي تجري تحت أعينهم . والمسألة في رأينا كانت مسألة حِسٍّ دقيق للعرب بالماضي ، وهو حس نجده في الآداب جميعاً ، حس يصل بين الأجيال السابقة واللاحقة في الأمة ، وهو حس لا يفصلها من حاضرها ، بل يؤكد الحاضر فيها ، ويساعدها على أن تتمثله تمثلاً واضحاً ، وأيضاً فإنه يُعنى الشعراء مما قد يصيبهم من ملل إذ يتحول خيالهم إلى الماضي يُفقدون منه موارد جديدة .

على كل حال يصور لنا ابن زيدون في شعره هذه الروح العربية العامة التي تتمسك بالماضي والتقاليد الموروثة ، وكأنما كانت هناك إبر مغناطيسية تجذب شعراء العرب بعضهم إلى بعض ، فتتشابه أساليبهم ، ويتشابه إطارها ، ولكن دون إخلال بتعبير كل منهم عن شخصيته ونفسيته وحوادثه الشعورية الخاصة .

وابن زيدون من خير النماذج التي تكشف لنا المترعين ، فهو لا يخرج في شعره على القواعد الموروثة ، وفي الوقت نفسه ينبض شعره بحياة عصره وما كان

فيه من حضارة وترف باذخ وإغراق في الحسن والخمر واللذة . فاتصاله بالماضي لم يحل بينه وبين تصوير الحاضر الذي عاش فيه .

أما نفسه وأما حبه فقد أودعهما شعره ، ومثلهما في صورة تخفق بالحياة . إذ لم يصدر فيها عن تجربة كاذبة . بل صدر عن تجربة صادقة ضغطت على شعوره وقلبه . ولم تلبث أن حطمت فؤاده حطماً . فقد انصرفت صاحبته عنه ، وأفلتت منه . أما هو فلم ينصرف بل ظل تتبعها نفسه . وظلت كل خالجة من خواججه تهفو إليها . ولم يكن أمامه إلا قيثارته . فذهب يلحن عليها شجونه وحنينه الدائب المستعر . في لهفة ولوعة شديدة لعل من أروع ما يمثلها قصيدته :

أضحى الثنائي بديلاً من تدّ أنينا ونابّ عن طيب لقيانا نجافينا

وفيه يقول :

حالتُ لفقدكم أيامنا فغدتُ سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا
إذ جانب العيش طلق من تألّفنا وموردُ اللهو صاف من تصافينا
وإذ هصرنا غصون الوصل دانيةً قطوفها فجنينا منه ما شينا
ليستقّ عهدكم عهد السرور فما كنتم لأرواحنا إلا رباحينا
ياجنة الخلد أبدي لنا بسلسلها والكوثر العذب زقّوماً وغسيلنا

وهي قصيدة تفيض بالحنين والحب والولاء مع الخفاء ، وكأنما يصب فيها زفراته ، وينفث لوعاته . وهي لوعات محب بلغت به حمى العشق درجة عالية من الدرجات العاطفية الحادة . ودائماً نلتقى في ديوانه بمثل هذه القصيدة ، ومن أروع ما فيه قصيدة بعنوان « ذكرى ولادة » كتبها إليها بعد خروجه من سجنه وقبل العفو عنه ، إذ ألمّ بالزهراء ، صاحبة قرطبة الفاتنة بمناظرها الطبيعية ، فلم يكذب يرثادها . وقد خلج عايبها الربيع حُلله . ونثر فيها زهره وورده وطيره ، حتى تشوق إلى حبيبته وتلهف على لقاءها . فناجها من بعيد :

إني ذكرتُك بالزهراء مشتاقاً والأفق طلق ومَرأى الأرض قد راقا
وللنسيم اعتلال في أصائله كأنه رقّ لي فاعتلّ إشفاقا

والروضُ عن مائه الفضَى مبتسمٌ
يومٌ كأيامِ لذاتِ لنا انصرفت
تلهو بما يستميلُ العينَ من زهرٍ
كانَ أعينُهُ إذ عاينتُ أرقى
وردٌ تألَّقَ في ضاحي منابته
سرى يُنافحه تيلوفرٌ عبقٌ
كلُّ يهيجُ لنا ذكرى تُشوقنا
لا سكَّنَ الله قلباً عن ذكركم
لو شاءَ بهلى نسيمُ الصبحِ حينَ سرى
لو كانَ وفيَّ المني في جمعنا بكم
كانَ التجارى بمحضِ الودِّ مُدْزَمِ
فالآنَ أحمدَ ما كنا لعهدكم

كما شَقَقْتَ عن اللَّبَّاتِ أطواقاً
بِتَنَّا لها حينَ نامَ الدهرُ سَرَّاقاً
جالَ النَّدى فيه حتى مالَ أعناقاً
بكتُ لما بي فجالَ الدمعُ رَقَرَّاقاً
فازدادَ منه الضحى في العينِ إشراقاً
وسنانُ نَبَّةٍ منه الصبحُ أحداقاً
إليك لم يَعُدْ عنها الصدرُ أنْ ضاقاً
فلم يطرُ بجناحِ الشوقِ خفَّاقاً
وأفاكمُ بفتى أضناه ما لاقى
لكانَ من أكرمِ الأيامِ أخلاقاً
ميدانَ أنسٍ جترَينا فيه أطلاقاً
سلوُّنمُ وبَقِينا نحنُ عُشَّاقاً

وواضح ما تموج به هذه المناجاة من مختلف المشاعر ومتنوع الخواطر .
فهو محب قلق بين اليأس والرجاء . وهو ينظر في الطبيعة حوله ومباهج الربيع .
فيشعر كأن كل شيء يشاركه في همومه . ولا نبالغ إذا قلنا إن هذه المقطوعة
تجربة نفسية كاملة للشاعر على قلة ما نجد من ذلك في شعرنا العربي . فالشاعر
يعطينا نفسه من خلال الطبيعة التي يصفها . يعطينا ألمه وحزنه واضطرابه وحنينه
المشتعل الذي لا يسكن ولا يهدأ ، فقد تحول كل ما فيه إلى جذوة للحب تنقد
وتستعر . ولم يعد يملك من دنياه إلا دموعه ، وإلا زفراته ، وإنها لتكاد تحرق
ضلوعه .

وما ينزع هذا المتزع من البكاء والحنين المسمَّطان اللذان أشرنا إلى وجودهما
في الديوان . فهو فيهما يبكي المعاهد والآثار التي كان يقضى فيها مع حبيبته
أمسياته ولياليه ، وكأنه يبكي رسوماً دارسة . وهو يكثر من هذا البكاء ويكثر
من الوقوف على تلك الأطلال التي انطمس تذكارها في نفس معشوقته ، ولكنها
لا تزال ماثلة أمام بصره .

وأكبر الظن أننا لا نعدو الحقيقة إذ قلنا إن ابن زيدون هو أهم شاعر

وجداني ظهر في الأندلس، فهو أستاذ هذا الفن هناك، إذ كان أول من اعتصر فؤاده شعراً عذباً فيه جوى وحرقة وهوى ولوعة، وتبعه أصحاب الموشحات والأزجال يصوغون على هديه ويحتذون بمثاله.

وعلى نحو ما اعتصر فؤاده اعتصر اللغة نفسها، واستخرج منها كل إمكاناتها الموسيقية ليشدو ألحانه المشجية التي ملكت على العرب ألبابهم في عصورهم القديمة والحديثة، حتى جعل كبار شعرائهم من همهم أن يعارضوا بعض قصيده، كي يظفروا ببعض أنغامه، فعارضه صفي الدين الحلبي والصفدي وأخيراً شوقي في نونيته^(١) الأندلسية، إذ صاغها على نمط نونيته (أضحى التناثي بديلاً من تدانينا) كما صاغ كافيته اللبانية^(٢) التي يغنى مقطوعة منها عبد الوهاب على نمط كافيته (ما للمدام تديرها عيناك) وقد عبر أجمل تعبير عن إعجابه به في قوله :

ابنُ زيدونَ عبقريُّ زمانه قصَّرَ المحسنون عن إحسانه
أخذ الرومُ في الجزيرة عنه ومَشَوْا في خياله وافتنانه

وليس روم الأندلس وحدهم هم الذين أخذوا عنه لوعة فؤاده وعمق عشقه، بل أخذها أيضاً في جنوب فرنسا جماعة التروبادور الذين تأثروا فيما بعد أصحاب الموشحات والأزجال من الأندلسيين، فعمله أو بعبارة أدق غزله كان واسع التأثير بما فيه من عمق الهوى وعذاب الحب وحرقة العشق.

(١) مطلع هذه النونية :

يا نائح الطلح أشباه عوادينا نشجي لوديك أم نأسي لوادينا

(٢) مطلع هذه الكافية التي نظمها شوقي في زحلة :

شيمت أحلامي بقلب ياك ولمت من طرق الملاح شباكي

جاء في ديوان شوقي (ولحت) بدلا من (لمت) وهو خطأ من الناشر.

٣ - رسالته الهزلية

مرّ بنا في غير هذا الموضع أن ابن زيدون كتب هذه الرسالة على لسان ولادة لابن عبدوس منافسه في حبها ، وهي رسالة طريفة من حيث الأسلوب الذي اتبعه فيها . إذ أجرى على لسان معشوقته تهكماً واستهزاء بغريمه ، بلغ فيهما شأواً بعيداً في الإجادة .

وكل من يتصفح الرسالة يستطيع أن يرى المشابهات الواضحة بينها وبين رسالة الترييع والتدوير للجاحظ ، ومعروف أن الرسالة الأخيرة تعرض فيها الجاحظ لأديب كان يُكثّر من نقده وذمّه ، وهو أحمد بن عبد الوهاب الكاتب البغدادي ، واتفق أن كان هذا الأديب قصيراً مملوءاً ، فنعتته بأنه مربع مدور . واستمر يُضني عليه صوراً ساخرة من الجمال ، وصوراً أخرى من المعرفة ، ووقف منه موقف المتعلم يسأله عن مشاكل الفلسفة والعلم ، وأورد عليه كثيراً من أسماء الرجال في كل ميدان من ميادين الثقافة .

وقرأ ابن زيدون هذه الرسالة وأعجب بها ، فحاول أن يصنع على مثالها هذه الرسالة الهزلية ، وهو يسهلها بذم ابن عبدوس ، إذ يقول :

« أيها المصاب بعقله ، المورط بجهله ، اللين سقطة ، الفاحش غلظه ، العائر في ذيل اغتراره ، الأعمى عن شمس نهاره ، الساقط سقوط الذباب على الشراب ، المتهافت تهافت الفراش في الشباب . »

وتنطلق ولادة - فالرسالة على لسانها - تصف رسوله إليها وما زينت ، حتى خيلت لها أنه جمع كل الفضائل من جمال وقوة وسلطان وحسن منادمة وشجاعة ووفاء وحلم وكرم ودهاء وذكاء وبيان وعقل وفلسفة وكلام ومقالة ونحلة ،

فهو المثل الأعلى في الأخلاق ، وهو المثل الأعلى في الثقافة . وفي كل لون من ألوان الأخلاق وكل ضرب من ضروب الثقافة تذكر شخصاً بمثله . من ملوك الأعاجم وسادة العرب وفلاسفة اليونان وأصحاب الكلام والفقه ، وتذكر أن صاحبته رفعتهم فوقهم مكاناً عالياً .

وكل ذلك يجري مجرى التهكم مما يستطيع القارئ أن يرجع إليه في فصل النماذج ، فهي ترفع من مخاطبه كأنها أو كأن ابن زيدون يريد أن يرميه من حائق . وهي تخلط ذلك بسرد الأمثال والأبيات التي تجري مجراها مستمدة منها الهزؤ به والعبث بعقله . وما تلبث أن تُفصح عما في نفسها « فتتوعده وتنذره ، ثم تنال عليه بالسباب والشتائم ، فالشرق والغرب لا يجتمعان ، والخبيث والطيب لا يستويان . وتعود فتبرق وتُرعِد « فالنار ، ولا العار » والمنية ، ولا الدنية » والحرّة تجوع ولا تأكل بثديها » وتقول له لا يغرنك من شهدت حولي من أقمار العصر وريحان مصر » وأين أنت وهم ، إنهم في السماء » أما أنت في الحضيض والدرك الأسفل . وما تزال به حتى تحضه على الندامة من محاولة دنوه منها والاستغفار مما حدثته نفسه بها .

وكل ذلك يُساق في سيول من الأمثال « وأبيات منثورة من الشعر ، غير الأعلام وأسماء الرجال الذين تزخر بهم الرسالة ، وكأن ابن زيدون يؤلف متناً من المتن » فالإنسان لا يخلص من معرفة شخص ممن يشير إليهم ، حتى يقع في مثل أو في حادثة أو في بيت شعر يحتاج إلى فضل من الشرح ولهذا كله عمد ابن نباتة إلى شرح الرسالة وسمى صنيعة « سرح العيون شرح رسالة ابن زيدون » .

٤ — رسالته الجديدة

كتب ابن زيدون هذه الرسالة وهو في السجن ، يستعطف بها أبا الحزم
جهوراً ، كى يطلق وثاقه ، ويعيد إليه حريته المسلوبة ، وهى لا تقل جمالا
ولا إبداعا عن سابقها ، بل لكأنها قصيدة نظمها ، ففيها انفعال حاد ، وفيها
عاطفة ملتهبة ، وفيها اضطراب وقلق شديد ، قلق البلبل الحبيس فى غياهب
السجن وظلماته .

وهو يفتتحها باستعطاف أبى الحزم واستتزال صوب رحمته وعطفه متأدباً
فى خطابه ، مثنياً عليه ، مادحاً له ، متعللاً بالآمال فى العفو عنه ، مستطرداً
إلى وصف ذنبه ، وأنه لا يبلغ شيئاً بجانب الذنوب الكبيرة المعروفة عند فقهاء
الإسلام ومؤرخيه ، وكأنه يريد منه أن يستصغر خطيئته ويغفرها له .

وما يلبث أن يتصل من جريرته فلا ذنب إلا نعمة نفثها كاشح وشاية
بها كاذب ، واستطرد فذكره بأنه من شيعة ، ومثله لا تضيع وسائله ، ولا
تضيق مذهبها ، بل مثله ينبغى أن يدركه أبو الحزم حين تلم به حادثة أو تنزل
به كارثة ، فهو شاعره الذى يُدبج فيه مدائح ، وإنه ليستعيد به أن يكون
« كالدُّبالة المنصوبة تضى للناس وتُحرق » .

وهنا ثور نفسه ، فيعلن أنه لا يصبر على الذل والهوان ، ويلمح بأنه
يستطيع مفارقة الوطن الذى ينكره إلى حيث يجد من يضحكونه « قبل إنزاع رحله
ويعطونه حكم الصبي على أهله :

وقيل له أهلاً وسهلاً ومرحباً فهذا مبيتٌ صالحٌ ومقيلٌ

وأخذت ثورته تهدأ ، فعاد إلى صوابه ومحبة وطنه ، وأعلن أنه لا يؤثر
عليه وطناً غيره ، كما أعلن أنه لا يختار على أبى الحزم ملكاً آخر من ملوك

عصره، ودلف من ذلك إلى استعطافه والمبالغة في تملقه حتى يعفو عن جنائته .
وذيل الرسالة بقصيدة في مدحه واستذلال نفسه له وطلب العفو والغفران منه .

والرسالة تمتلئ كسابقها بذكر الأحداث والأعلام التاريخية ، كما
تمتلئ بذكر الأمثال ، تتخلل ذلك عبارات « نُزعت من الشعر والنثر القديم .
من أجل ذلك كانت هي الأخرى تشبه ممتناً من المتون » وكانت ألفاظها
وأساليبها في حاجة إلى بيان وتفسير . وهذا ما حدث فعلاً فقد شرحها الصفدى
في كتاب سماه « تمام المتون شرح رسالة ابن زيدون » . وواضح أنه شعر في
دقة بما نقوله من أنه يعالج ممتناً يشبه متون العلم لا رسالة أدبية . فهو يسمي
شرحها « تمام المتون » . إذ يرى نفسه إزاء رموز من الوقائع والتاريخ والأمثال يعوزها
غير قليل من التوضيح والبيان .

ويستطيع القارئ أن يرجع إليها في فصل النماذج ليرى أنها تحتوى بجانب
ما ذكرنا على اقتباسات من القرآن الكريم وتضمينات من الحديث . فهي ممتنة
بأدق ما تدل عليه هذه الكلمة . ولا يبنى ذلك أنها رائعة من الوجهة البلاغية ،
وخاصة حين يترك ابن زيدون الرمز والإشارة ويعمد إلى الاسترسال في كلامه ،
إذ يبينه من لفظ جزل رصين « فيه قوة » وفيه سحر وجمال .

ونالت هذه الرسالة الجدية وسابقها الهزلية شهرة مدوية في تاريخ الأدب
العربي ، للبراعة الأدبية فيهما من جهة ، ولما احتوتا من وقائع التاريخ وحوادثه
وأسماء الرجال وأبيات الشعر الجيدة والأمثال من جهة ثانية .

ولم يكتب ابن زيدون رسالتيه بأسلوب السجع الذي شاع في عصره بالشرق ،
بل كتبهما بأسلوب النثر الحر الطليق . ولعل في هذا ما يدل دلالة قاطعة على
أن الأندلس لم تكن قد ارتبطت حتى هذا العصر ، عصر ملوك الطوائف ،
بأسلوب السجع . بل كانت لا تزال أقرب إلى الفطرة والطبع .

وليس ابن زيدون وحده الذي استخدم الأسلوب المرسل في نثره . فن حوله
استخدمه ابن شهيد في رسالته « التوايع والزوايع » كما استخدمه ابن حزم في
رسالته « طوق الحمامة » . ومع ذلك فقد كان بين الأدباء من يلتزم السجع على
نحو ما نجد عند ابن بُرْد الأصغر في رسائله .

ومهما يكن فقد كان ابن زيدون بارعاً في صوغ الكلام سواء أحاله شعراً أم أحاله نثراً ، وكانت لديه قدرة بديعة في حوكة ونسججه مهما يكن الخيط الذي يحوك عليه أفكاره ، وينسج حوله ألفاظه ، ضعيفاً أو واهياً . ويروى الرواة أن بنتاً له توفيت . فوقف للناس بعد جنازتها يتقبل عزاءهم ويشكرهم ، فلم يجب أحداً بعبارة أجاب بها غيره . وهذا دليل ناطق على سعة تصرفه في التعبير وقدرته على التفنن في استخدام الأساليب . وأظن من حقنا أن نقول إنه كان فلتة من فلتات عصره ، سواء في شعره أم في نثره .

الفصل الرابع

منتخبات من آثار ابن زيدون

١ - نماذج الغزل

حنين

نظم ابن زيدون هذه القصيدة النادرة المثال بعد خروجه من السجن وقبل صدور العفو عنه ،
يمر فيها عن حنينه وشوقه لرؤية محبوبته ولادة ■ ويذكر لها أنه لا يزال وفياً بعد هجرها ،
ويتحدث حديث الملتاع عن أيام وصلها الذى لا يستطيع أن ينساه . ويقول ابن بسام إن جماعة عارضوه
فيها فقصروا عنه ، وعارضها شوقي على نحو ما مر في غير هذا الموضع ■ وهى تجرى على هذا النمط :

أُضْحَى التَّنَائِي بَدِيلًا مِنْ تَدَانِينَا	وَنَابَ عَنْ طَيْبِ لُقْيَانَا نَجَافِينَا
هَلَّا ^(١) وَقَدْ حَانَ صُبْحُ الْبَيْنِ صَبَّحْنَا	حَيْنٌ ^(٢) فَقَامَ بِنَا لِلْحَيْنِ نَاعِينَا
مِنْ مُبْلَغِ الْمُلْسِينَا بَانْتِزَاحِهِمْ	حُزْنًا مَعَ الدَّهْرِ لَا يَنْبَلَى وَيُبْلِينَا
أَنَّ الزَّمَانَ الَّذِي مَا زَالَ يَضْحَكُنَا	أَنْسَا بَقَرِيهِمْ قَدْ عَادَ يُبْكِينَا
غِيْظَ الْعِدَى مِنْ نَسَاقِينَا الْهَوَى فَدَعَوْا	بِأَنْ نَقْصَ ^(٣) فَقَالَ الدَّهْرُ آمِينَا
فَانْحَلَّ مَا كَانَ مَعْقُودًا بِأَنْفُسِنَا	وَانْبَتَّ مَا كَانَ مُوصُولًا بِأَيْدِينَا
وَقَدْ نَكُونُ وَمَا يُخْشَى تَفَرُّقُنَا	فَالْيَوْمَ نَحْنُ وَمَا يُرْجَى تَلَاقِنَا
يَا لَيْتَ شَعْرَى وَلَمْ نُعْتَبِ ^(٤) أَعَادِيَكُمْ	هَلْ نَالِ حَظًّا مِنَ الْمُعْتَبَى أَعَادِينَا

(١) هلا : كلمة تحضيض مركبة من هل ولا ، فإن دخلت على الماضى كانت للوم على ترك الفعل وإن دخلت على المضارع كانت للحث على الفعل .

(٢) الحين : الموت .

(٣) غص بالماء ■ شرق به ويقال شرق بالماء أو بالدمع ، وشجى بالعظم ونحوه .

(٤) نعتب : نرضى ■ من العتبى وهى الرضا .

لم نعتقد بدمكم إلا الوفاء لكم
 ما حَقَّقْنَا أَن تُقِرُّوْا عَيْنَ ذِي حَسَدٍ
 كُنَّا نَرَى الْيَأْسَ نُسَلِّمُنَا عَوَارِضَهُ
 بِنْتُمْ^(١) وَبِنَا فَا ابْتَلَتْ جَوَانِحُنَا^(٢)
 نَكَادُ حِينَ تَنَاجِيكُمْ ضَمَائِرُنَا
 حَالَتْ^(٣) لَنَقْدِكُمْ أَيْمَانُنَا فَغَدَتْ
 إِذْ جَانِبُ الْعَيْشِ طَلَّقَ مِنْ تَأَلَّفِنَا
 وَإِذْ هَضَبْنَا^(٤) غُصُونُ الْوَصْلِ دَانِيَةً
 لِيُسْقَ عَهْدُكُمْ عَهْدُ السَّرُورِ فَا
 لَا تَحْسَبُوا نَأْيَكُمْ^(٥) عَنَا يُغَيِّرُنَا
 وَاللَّهِ مَا طَلَبْتُ أَهْـوََاؤُنَا بَدَلًا
 يَأْسَارِي الْبَرْقِ غَادٍ^(٦) الْقَمَصْرَ فَاسْقِ بِهِ
 وَاسْأَلْ هُنَالِكَ هَلْ عَنَى^(٧) تَذَكَّرْنَا

رَأْيَا وَلَمْ تَقْلُدْ غَيْرَهُ دِينَا
 بِنَا وَلَا أَن تَسُرُّوْا كَاشِحًا^(٨) فِينَا
 وَقَدْ يَتَّبِعُنَا فَا لِلْيَأْسِ يُغَيِّرُنَا
 شَوْقًا إِلَيْكُمْ وَلَا جَفَّتْ مَا قِينَا
 يَقْضِي عَلَيْنَا الْأَسَى لَوْلَا تَأْسِينَا^(٩)
 سَوْدًا وَكَانَتْ بِكُمْ بَيْضًا لِيَالِينَا
 وَمَوْرِدُ اللَّهْوِ صَافٍ مِنْ تَصَافِينَا
 قُطُوفُهَا^(١٠) فَجَنِينَا مِنْهُ مَا شِينَا^(١١)
 كُنْثَمَ لِأَرْوَاحِنَا إِلَّا رِيَا حِينَا
 إِنْ طَلَمَّا غَيَّرَ الذَّأْيُ الْحَبِيبِنَا
 مِنْكُمْ وَلَا انْصَرَفَتْ عَنْكُمْ أَمَانِينَا
 مِنْ كَانَ صِرْفَ الْهَوَى وَالْوُدَّ يَسْقِينَا
 إِلْفًا ، تَذَكَّرُهُ أَمْسَى يُعَيِّنُنَا

(١) الكاشح : العدو .

(٢) بنتم : بدمتم .

(٣) الجوانح : الضلوع والمراد ما بداخلها من القلب والحناء .

(٤) التأسي : التصبر والتعزي .

(٥) حَالَتْ : استحالت .

(٦) هَضَبْنَا : أَمَلْنَا « والاستعارة واضحة إذ شبه الوصل بشجرة .

(٧) القُطُوف : الثمار التي تجنى وتقطف .

(٨) شِينَا : مخففة من شَتْنَا .

(٩) التأي : اليمد والفراق .

(١٠) غَاد : باكر .

(١١) عَنَى : شغل .

ويا نسيم الصبا بَلِّغْ بَحْبَحَتِنَا
 فهل أرى الدهر يقضينا مُسَاعِفَةً
 ريبُ مُلْكٍ كَانَ اللهُ أَنْشَأَهُ
 أو صَاغَهُ وَرَقًا^(٢) مَحْضًا وَتَوَجَّهَ
 إِذَا تَأَوَّدَ^(٣) آدَتُهُ^(٤) رَفَاهِيَّةً
 كَانَتْ لَهُ الشَّمْسُ ظِلًّا^(٥) فِي أَكْلَتِهِ^(٦)
 كَأَنَّمَا أَثْبِتَتْ فِي صَحْنٍ وَجَنَّتِهِ
 مَا ضَرَّ أَنْ لَمْ نَكُنْ أَكْفَاءَ شَرْفًا
 يَارَوْضَةَ طَالَمَا أَجَنْتُ لَوَاحِظَتَا
 وَيَا حَيَاةَ تَمْلِينَا^(٧) بَزْهَرَتِهَا

مِنْ لَوْ عَلَى الْبُعْدِ حَتَّى كَانَ يُحِينَا
 مِنْهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ غِبًّا^(٨) تَقَاضِينَا
 مِسْكَاً وَقَدَّرَ إِنْشَاءَ الْوَرَى طِينَا
 مِنْ نَاصِعِ التَّبَرِّ إِبْدَاعًا وَتَحْسِينَا
 تَوْمَ^(٩) الْعَقُودِ وَأَدَمَتَهُ الْبُرَى^(١٠) لِينَا
 بَلْ مَا تَجَمَّلَى لَهَا إِلَّا أَحَابِينَا
 زَهْرُ الْكَوَاكِبِ تَعْوِيدًا^(١١) وَتَزِينَا
 وَفِي لِلرَّوْدَةِ كَافٍ مِنْ تَكَاثُفِنَا
 وَرَدًّا جَلَاءَ الصَّبَا غَضًا وَنَشْرِينَا^(١٢)
 مَنَى ضَرْوبًا وَلَدَاتٍ أَفَانِينَا

(١) الغب في الزيادة : الإقلال ، قال ابن الزردي :

غَب وزر غِبًّا تَزِدُ حَبًّا فَنِ أَكْثَرَ التَّرْدَادِ أَضْنَاءَ الْمَلَلِ
 وهو مأخوذ من قول القائل :

فَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَتَلَى فِزْرَ مَتَوَاتِرًا وَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَزْدَادَ حَبًّا فِزْرَ غَبًّا
 (٢) الورق : الفضة .

(٣) تَأَوَّدَ : تَفَى .

(٤) آدَتُهُ : أَثْقَلَتْهُ .

(٥) لَآلَى : مُزْدَوِجَةٌ وَوَاحِدَتُهَا : قُوَّةٌ ، وَجَمْعُهَا : تَوْمٌ يَفْتَحُ الْوَادِئَ وَإِسْكَانُهَا . قَالَ شَوْقِي :

دَعِ عَنْكَ رَوْسًا وَأَثِينًا وَمَا حَوْتَا كُلَّ الْيَوَاقِيتِ فِي يَفْعَادٍ وَالتَّوْمِ

(٦) الْبُرَى : الْخَلَاخِيلُ .

(٧) الظُّفْرُ : الْمَرْصُوعَةُ .

(٨) أَكَلَةٌ : جَمْعُ كَلَةٍ وَهِيَ سِتْرُ الْفَرَاشِ .

(٩) التَّعْوِيدُ : الرِّقِيَّةُ .

(١٠) النَّسْرِينِ : نَوْعٌ مِنَ الْوَرْدِ أَيْضُ الزَّهْرِ عَطَّرَ .

(١١) تَمْلِينَا : تَمَتُّعُنَا .

ويا نعيم! خَطَرْنَا مِنْ غَضَارَتِهِ ^(١)
لَسْنَا نُسَمِّيكِ إِجْلَالًا وَتَكْرِمَةً
إِذَا انْفَرَدَتْ وَمَا شُورِكْتِ فِي صِفَةٍ
يَا جَنَّةَ الْخُلْدِ أَبَدِلْنَا بِسَلْسِلِهَا ^(٢)
كَأَنَّا لَمْ نَبْتَ وَالْوَصْلُ نَالُنَا
سِرَّانَ فِي خَاطِرِ الظُّلَمَاءِ يَكْتُمُنَا
لَا غُرُورَ فِي أَنْ ذَكَرْنَا الْحُزْنَ حِينَ نَهَتْ
إِنَّا قَرَأْنَا الْأَمْسَى يَوْمَ النَّوَى سُورًا
أَمَّا هَوَاكِ فَلَمْ نَعْدِلْ بِمَنْهَلِهِ
لَمْ نَجْنَفْ أَفَقَ جَالٍ أَنْتَ كَوَكْبُهُ
وَلَا اخْتِيَارًا جَنَّبْنَاهُ عَنْ كُتُبِ
نَأْسَى عَلَيْكَ إِذَا حُتَّتْ مُشْعَشَعَةٌ
لَا أَكُوسُ الرِّيحِ تُبْدِي مِنْ شِمَائِلُنَا

فِي وَشْيٍ ^(٣) نَفْسِي سَحَبْنَا ذَيْلَهُ حِينَا
وَقَدَرُكَ الْمُعْتَلَى عَنْ ذَاكَ يُغْنِينَا
فَحَسْبُنَا الْوَصْفُ إِضَاحًا وَتَبْيِينَا
وَالْكُوْثَرُ ^(٤) الْعَذْبُ زَقُومًا ^(٥) وَغَشَلِينَا
وَالسَّعْدُ قَدْ غَضَّ ^(٦) مِنْ أَجْفَانِ وَاشِينَا
حَتَّى يَكَادَ لِسَانُ الصَّبْحِ يُفْشِينَا
عَنْهُ النَّهْيُ ^(٧) وَتَرَكْنَا الصَّبْرَ نَاسِينَا
مَكْتُوبَةً وَأَخَذْنَا الصَّبْرَ تَلْقِينَا
شِرْبًا وَإِنْ كَانَ يُرْوِينَا فَيُظْمِئُنَا
سَالِينَ عَنْهُ وَلَمْ نَهْجُرْهُ قَالِينَا ^(٨)
لَكِنْ عَدَّتْنَا ^(٩) عَلَى كَرِهِ عَوَادِينَا
فِينَا الشُّمُولُ ^(١٠) وَغَنَانَا مُقَتِّنَا
سِيَّارَتِيَّاحٍ وَلَا الْأَوْتَارُ تَلْهِينَا

(١) الفضارة : خفص العيش .

(٢) الوشي : ثوب من الحرير منقوش .

(٣) السلسل : الماء العذب البارد .

(٤) الكوثر : نهر في الجنة .

(٥) الزقوم والفلسين : طعامان من أطعمة أهل النار .

(٦) غض : خفص .

(٧) النهي : جمع نهي وهي العقل .

(٨) قالين : كارهين .

(٩) عدتنا : صرفتنا ، والعوادي : صروف الدهر .

(١٠) الشمول : الخمر ، ومشعشة : مزوجة بالماء .

دُومى على العهد، ما دمننا، مُحَافَظَةً
 فما أَسْتَعَضَّنا خَلِيلاً مِنْكَ يَحْبِسُنَا
 ولو صَبَا نَحُونَا مِنْ عُلُوِّ مَطْلَمِهِ
 أُولَى (٣) وفاء وإن لم تَبْدُلْ صِلَةَ
 وفى الجواب متاعٌ لو شَقَقْتَ بِهِ
 عَلَيْكَ مَنَى سَلامُ اللَّهِ ما بَقِيَتْ
 فالحُرُّ من دَانَ (١) إِنْصَافاً كما دِينَا
 ولا اسْتَفَدْنَا حَبِيباً عَنْكَ يَنْتَبِئُنَا
 بَذَرُ الدُّجَى لم يكن حاشاكِ يُصَيِّبُنَا (٢)
 فالطيف يُقِنُّعُنَا والذِّكْرُ يَكْفِينَا
 بيضَ الأيَادى التى ما زلتِ تُؤَلِّينَا
 صَبَابَةً مِنْكَ نُخَفِّئُهَا فَتُخَفِّئُنَا

عمق الهوى

هذه إحدى مقطوعاته التى نظمها بعد هجر صاحبتة ، ودور فيها يذوب شوقاً ولوعة ، ويتنى لوماد
 الرضا والوصال ، يقول :

إِلَيْكَ مِنَ الْأَنَامِ غدا ارتياحى
 وما اعترضتْ هُمُومُ النَّفْسِ إِلَّا
 فِدَيْتُكَ إِنْ صَبْرِي عَنْكَ صَبْرِي
 وَلِي أَمَلٌ لو الْوَاشُونَ كَفُّوا
 وَأَعْجَبُ كَيْفَ يَغْلِبُنِي عَدُوٌّ (٥)
 وَلَئِنْ جَلَّتْ لِي اخْتِلَاساً
 رَأَيْتُ الشَّمْسَ تَطْلُعُ مِنْ نَقَابِ
 وَأَنْتِ عَلَى الزَّمانِ مَدَى اقْتِرَاحِي
 وَمِنْ ذِكْرِكَ رَيْحَانِي وَرَاحِي
 لَدَى عَطَشِي عَلَى الْمَاءِ الْقَرَّاحِ (٤)
 لِأَطْلُعَ غَرْسُهُ ثَمَرَ النَّجَاحِ
 رِضَاكَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْضَى سَلاحِ
 أَكْفَتْهُ الدَّهْرُ لِلْحَيْنِ الْمُتَاحِ
 وَعُصْنُ الْبَانِ يَرْفُلُ فِي وَشَاحِ (٦)

(١) دَانَ : جزى . دين : مجهول دَانَ .

(٢) يَصَيِّبُنَا : يَسْهُوِنَا .

(٣) أُولَى : أُنْعَمَى .

(٤) الْقَرَّاحِ : الصَّاقِ .

(٥) يَرِيدُ بِالْعَدُوِّ غَرِيمَهُ ابْنَ عِيلَوسَ .

(٦) الْوَشَّاحُ : حَزَامٌ يَرْمِصُ بِالْجَوْهَرِ تَشْدَهُ الْمَرْأَةُ لِبَنِ عَاتِقِهَا وَكَشْحِهَا .

فَلَوْ اسْتَطِيعَ^(١) طَرِيتُ إِلَيْكَ - شَوْقًا . وَكَيْفَ يَطِيرُ بِمَقْصُوصِ الْجَنَاحِ
 عَلَى حَالٍ وَصَالٍ وَاجْتِنَابٍ . وَفِي يَوْمٍ دُنُوٍّ وَانْتِزَاجٍ^(٢)
 وَحَسْبِي أَنْ تَطَالَمَكَ الْأَمَانِي . بِأَقْلِكَ فِي مَسَاءٍ أَوْ صَبَاحٍ
 وَأَنْ تُهْدِيَ السَّلَامَ إِلَيَّ غِيًّا^(٣) . وَلَوْ فِي بَعْضِ أَنْفَاسِ الرِّيَّاحِ
 فَوَادِي مِنْ أَسَى بَكَ غَيْرُ خَالٍ . وَقَلْبِي عَنْ هَوَى لَكَ غَيْرُ صَاحٍ

لهفة

هذه مقطوعة ثانية يمين فيها عن شوقه ، وأنه لا يستطيع صبراً عن لقاء صاحبه . وهو فيها مضطرب بين اليأس والأمل . وإن الأمل لترجح كفته في نفسه . يقول :

هَلْ رَاكِبٌ ذَاهِبٌ عَنْهُمْ يُحْيِيَنِي . إِذْ لَا كِتَابَ يُوَافِيَنِي فَيُحْيِيَنِي
 قَدِمْتُ إِلَّا ذِمَاءً^(٤) فِي يَمْسِكُهُ . أَنْ الْفَوَادِ بِلُقْيَاهُمْ يُرْجِيَنِي
 مَا سَرَّحَ^(٥) الدَّمْعُ مِنْ عَيْنِي وَأَطْلَقَهُ . إِلَّا اعْتِيَادُ أَسَى فِي الْقَلْبِ مَسْجُونٍ
 صَبْرًا لَعَلَّ الَّذِي بِالْبُعْدِ أَمْرُضَنِي . بِالْقُرْبِ يَوْمًا يَدَاوِينِي فَيَشْفِيَنِي
 كَيْفَ اصْطَبَارِي وَفِي كَانُونٍ^(٦) فَارْقِي . قَلْبِي وَهَا نَحْنُ فِي أَعْقَابِ تَشْرِينٍ^(٧)
 شَخْصٌ يَذْكُرُنِي فَاهْ وَغُرَّتَهُ . شَمْسُ النَّهَارِ وَأَنْفَاسُ الرِّيَّاحِينَ

(١) استطيع : أستطيع وكثيراً ما تحذف تاء استطاع في الشعر للتخفيف .

(٢) انتزاج : بعد .

(٣) غيا : في الحين بعد الحين .

(٤) الذمء : بقية الروح .

(٥) سرح : أطلق .

(٦) كانون الأول : شهر ديسمبر ، وكانون الثاني : شهر يناير .

(٧) تشرين الأول : شهر أكتوبر ، وتشرين الثاني : شهر نوفمبر .

لئن عَطِشْتُ إِلَى ذَاكَ الرُّضَابِ ^(١) لَكَمْ
وإن أفاض دموعي نوحُ بأكبةٍ
وإن بعُذْتُ وَأَصْنَعْتُ المموم لقد
ياحُسنَ إشرافِ ساعاتِ الدنوّ بَدَتْ
والله ما فارقوني باختيارهم
وما تبدّلتُ حُبًّا غيرَ حُبِّهم
أفدَى الحبيب الذي لو كان مقتدراً
ياربِّ قَرَّبْ عَلَى خَيْرِ تَلَاقِنَا
قد بات منه يُسْقِي فيروني
فكم أراه يُقِنِّي فيشجيني
عهده وهو يُدْنِي فيُسَلِّيني
كواكباً في ليالي بُعْدِهِ الجون ^(٢)
وإنما الدهرُ بالمكروه يرميني
إذا تبدّلتُ دينَ الكفرِ من ديني
لكانَ بالنفسِ والأهلين يَفْدِي
بالتاليعِ السعدِ والطيرِ الميامين ^(٣)

وداع

تعبر هذه المقطوعة عن يأس الشاعر وألمه ، فقد أصبح فؤاد صاحبه فارغاً منه ، وأظلمت الدنيا في عينيه ، فتغنى تغنى الشق المحروم بهذا اللحن الشجي الحزين يقول :

لئن قصر اليأسُ منكِ الأملَ
وناجاكِ بالإفكِ ^(٤) في الحسودِ
ورافكِ سِحرِ العِدَى المُفْتَرى
فإن ذِمَامَ الهوى لن أزالَ
فديتُك إن تعجلى بالجفا
وحال تجنيكِ دون الحيلِ
فأعطيته جهرةً ما سألَ
وغرّك زورهمُ المُفْتَعَلِ
أُبقِيه حفظاً كما لم أزلَ
فقد يهبُ الرِّيثُ بعضُ العَجَلِ ^(٥)

(١) الرضاب : الرقيق .

(٢) الجون بضم الجيم جمع جون بفتح الجيم : السود .

(٣) الميامين : جمع ميمون : ذو اليمن والبركة . يقال هو ميمون الطائر أى مبارك الطلعة .

(٤) الإفك : الكذب .

(٥) نظم ابن زيدون في هذا الشطر مثلاً مشهوراً هو : رب عجلة تهب ريثاً ، والريث : البطة .

علام، اطَّيَّبَكَ (١) دواعي القَلِّ (٢) ووفيم ثَمَّتَكَ نواهي العَدَلِ
 أَلَمْ أُلْزِمِ الصَّبْرَ كَيْمَا أَخِفَّ أَلَمْ أَرْضَ مِنْكَ بِغَيْرِ الرِّضَا
 أَلَمْ أَغْفِرْ مَوْبِقَاتِ (٣) الذَّنْوِ وَمَا سَاءَ ظَنِّي فِي أَنْ يُسَيَّءَ
 عَلَيَّ حِينَ أَصْبَحْتَ حَسْبَ الضَّمِيرِ مَسَمَيْتَ لَتَكْدِيرِ عَهْدٍ مَهْمَا
 فَمَا عُرِفْتَ بِمَقَى (٤) مِنْ أَذَى وَهَمًا هَزَزْتُ إِلَيْكَ الْعَتَا
 كَأَنَّكَ نَازِلَتْ أَهْلَ (٥) الْكَلَامِ وَلَوْ شِئْتَ رَاجَعْتَ حُرَّ الْفَعَالِ
 فَلَمْ يَكُ حَظِّي مِنْكَ الْأَخْسَ عَلَيْكَ السَّلَامُ سَلَامُ الْوَدَاعِ
 وَمَا بِاخْتِيَارٍ تَسَلَّيْتُ عَنْكَ وَلَمْ يَدْرِ قَلْبِي كَيْفَ النَّزْوَعُ
 وَفِيم ثَمَّتَكَ نواهي العَدَلِ أَلَمْ أَكْثِرِ الْهَجَرَ كَيْ لَا أُمَلَّ
 وَأَبْدَى السَّرُورَ بِمَا لَمْ أُنَلَّ؟ بَ عَمْدًا أَتَيْتَ بِهَا أَمْ زَلَّلَ؟
 بِي الْفَعْلَ حُسْنُكَ حَتَّى فَعَّلَ وَلَمْ تَبْغِ مِنْكَ الْأَمَانِي بَدَلُ
 وَحَاوَلْتُ نَقْصَ وَدَادٍ كَمَلُ وَلَا أَغْفِيْتُ ثَقْيَ مِنْ خَجَلُ
 بَ ظَاهَرْتُ (٦) بَيْنَ ضُرُوبِ الْعِلَلِ وَأُوتَيْتَ فَهَمًا بَعْلُ الْجَدَلِ
 وَعُدْتُ لَتِلْكَ السَّجَايَا الْأَوَّلِ وَلَا عُدَّةَ سَهْمِي فِيكَ الْأَقْلُ
 وَدَاعٍ هَوَى مَاتَ قَبْلَ الْأَجَلِ وَلَكِنِّي مُكْرَهُ لَا بَطْلَ (٧)
 إِلَى أَنْ رَأَى سِيرَةً فَاثْمَثَلَ

(١) اطَّيَّبَكَ : اسَّالَمَكَ .

(٢) القَلِّ : الْبَغْضُ .

(٣) مَوْبِقَاتِ : مَهْلَكَاتِ .

(٤) الْمَقَى : الْحُبُّ .

(٥) ظَاهَرُ : طَابَقُ .

(٦) أَهْلُ الْكَلَامِ : عُلَمَاءُ الْكَلَامِ وَالتَّوْحِيدِ .

(٧) تَفْصِيلٌ لِمِثْلِ مَشْهُورٍ « مُكْرَهُ أَخَاكَ لَا يَطْلُ » .

وليت الذي قاد عفوا إليك
يُحِيلُ عذوبة ذاك اللَّمَى^(١)
أبى الهوى في عنان الغزل
ويشفي من السَّقم تلك المقل

شكوى

يشن الشاعر في هذه الشكوى وهو تاليف غريب ■ ويتحدث عن حزنه وسهاده ولوعات حبه ، وتشجيه ورقاه (٢) ، فينبض قلبه بمشقة ، يقول :

هل تذكرون غريباً عاده شجنُ
يُخْفِي لواعجه والشوقُ يَفْضَحُهُ
من ذكركم وجفا أجفانه الوسنُ^(٣)
فقد تساوى لديه السرُّ والعلنُ
يا ويلتاه أبقى في جوانحه
وأرق العين والظلماء عاكفة
فبت أشكو وتشكو فوق أَيْكَتِها^(٤)
يا هل^(٥) أجالسُ أقواما أحبهم
أو تحفظون عهداً لا أضيّعها
كنا وكانوا على عهدٍ فقد ظعنوا^(٦)
إن الكرام بحفظِ العهد أمتحنُ

(١) اللمى : سرة في الشفة .

(٢) ورقاه : حماة .

(٣) الوسن : النوم .

(٤) الأيكة : الشجر الملتف .

(٥) يا : حرف نداء للاكتفاء على تقدير أن المنادى مخلوف .

(٦) ظعنوا : رحلوا .

ذكري قرطبة

أصبح الشاعر طريداً من فردوس الحب « فقد نزع عنه بعيداً في إشيلية » ولم يعد أمامه أمل في أن يحب من كتبه ، فقد أدبرت عنه السعادة « وفرت منه نشوة الحب » ولم يبق له إلا الفراغ والحسرة وأطياف الذكرى « وهو يتغنى بذلك كله في هذا المسمط »

سقى الفَيْثُ أطلالَ الأحبةِ بِالْحَمَى وَحَاكَ عَلَيْهَا ثَوْبَ وَشْيٍ مُنَمَّنًا^(١)
وأطلعَ فيها للأزاهير أنجماً فكم رفلت^(٢) فيها الخرائد^(٣) كالدمى^(٤)
إذ العيشُ غَضَّ والزمانُ غلام^(٥)

أهيمُ بِجَبَّارٍ يَعْزُّ وَأَخْضَعُ شذا المِسكِ من أَرْدَانِهِ^(٦) يتضوعُ
إذا جئتُ أشكوهُ الْجَوَى ليس يَسْمَعُ فما أنا في شيء من الوصلِ أطمعُ
ولا أن يزور المقلتين مَنَامُ

قَصِيبٌ من الرِّيحَانِ أَثْمَرَ بالبدرِ لَوَاحِظُ عَيْنِهِ مُلْتَنٍ من السَّحَرِ
وديباجُ خَدَيْهِ حكي رَوْنَقِ الحمرِ وألفاظُهُ في النُّطقِ كاللؤلؤِ النَّثَرِ
وريقته في الارتشاف مَدَامُ

سَقَى جَنَابَاتِ القَصْرِ صَوْبُ الغائمِ وَغَنَى على الأغصانِ وَرَقُ الجائِمِ
بقرطبة الغراء دارِ الأكارمِ يلاذُّ بها شَقُّ الشَّبابِ تَمَامِي
وأنجبنى قومٌ هَتَاكَ كَرَامُ

(١) المنعم : المزخرف والمنقوش .

(٢) رفلت : تبخّرت .

(٣) الخرائد : جمع خريدة وهي المعزاة الخجول .

(٤) الدمى : جمع دمية وهي التمثال .

(٥) الزمان غلام : كناية عن السرور والسعادة .

(٦) الأردن : الأكرام .

فكم لي فيها من مساء وإصباح . بكل غزالٍ مشرق الوجه وضاح .
يُقدِّمُ^(١) أفواهَ الكتوس بتفاح . إذا طلعت في راحه أنجمُ الراح .

فإننا لإعظام المدام قيامُ

ويوم لدى (النبى)^(٢) في شاطئ النهر . تدَارُ علينا الراح في فتية زهر^(٣) .
وليس لنا قرش سوى يانع الزهر . يدور بها عذبُ اللى أهيفُ الخضر .
بفيه من الثغر الشئيب^(٤) نظامُ

ويوم (بحوف الرصافة) مُبهج . مررنا بروض الأقحوان المذبح^(٥) .
وقابلنا فيه نسيمُ البنفسج . ولاح لنا وردٌ كحدٍ مضرّج .
نراه أمام النور^(٦) وهو إمامُ

وأكرمُ بأيام (العقاب) السوّالف . وهو أثرناه بتلك الماطف .
بسود أثيث الشعر بيض السوّالف^(٧) . إذا رَقَلوا في وشى تلك المطارف^(٨) .

فليس على خلع العذار^(٩) ملامُ

وكم مشهدٍ عند (العقيق) وجنبره . قعدنا على حُر النبات وصُفْره .
وطبّي يسقينا سلافة^(١٠) خمره . حكى جسدَى في السقم رقة خضره .

(١) يقدم : يفتى من التقديم وهو النطاء يوضع على فم الإناء أو الكأس .

(٢) النبى : اسم موضع بقرطبة ، وكذلك الألفاظ التي وضعتها بين أقواس في المسط .

(٣) زهر : جمع أزهر وهو مشرق الوجه .

(٤) الثغر الشئيب : المفتّر عن أسنان لؤلؤية .

(٥) المذبح : المزين .

(٦) النور : الزهر الأبيض .

(٧) أثيث الشعر : غزيره ، والسوّالف : جمع سالفة ، وهي صفحة العنق .

(٨) المطارف : جمع مطرف وهو ثوب من حرير .

(٩) خلع العذار : كناية عن التهنك والخلاعة .

(١٠) سلافة الخمر : أول ما يشرب منها ، وتسمى الخمر سلافة .

لواحِظْهُ عِنْدَ الرُّتُوءِ مِثْلَهُمْ
 قُلْ لِّزَمَانٍ قَدْ تَوَلَّى نَيْمُهُ وَرَثَتْ عَلَى مَرٍّ اللَّيَالِي رُسُومُهُ
 وَكَمْ رَقٍّ فِيهِ بِالْمِثْقَالِ نَيْمُهُ وَلَا حَتَّ لِسَارِي اللَّيْلِ فِيهِ نَجُومُهُ
 عَلَيْكَ مِنَ الصَّبِّ الْمَشُوقِ سَلَامٌ

٢ - نماذج الاستمطاف

تذلل وعتاب

نظم ابن زيدون هذه القصيدة في مفتتح حياته التامة بسجنه ، وهو فيها يعاتب أبا الحزم .
 جهوراً ويتضرع ويتذلل . ولكن تذلل الأبي الذي يقدر ملكاته الفنية فهو يستمطف ويفخر ،
 وكأنما يتدب نفسه . يقول وقد أعياه السجن وأثقلت محنته :

أَلَمْ يَأْنِ أَنْ يَبْكِيَ الْغَمَامُ عَلَى مِثْلِي	وَيَطْلُبُ ثَأْرِي الْبَرَقُ مُنْصَلِتَ ^(١) النَّصْلِ
وَهَلَا أَقَامَتْ أَنْجُمُ اللَّيْلِ مَأْنِمًا	لَتَنْدُبَ فِي الْأَفَاقِ مَا ضَاعَ مِنْ نُبْلِي
وَلَوْ أَنْصَفَتْنِي وَهِيَ أَشْكَالُ هِمَّتِي	لَأَلَقْتُ بِأَيْدِي الدُّلَّ مَا رَأَتْ ذُلِّي
وَلَا فَرَّقَتْ سَبْعُ الثُّرَيَّا وَغَاضَهَا	بِمَجْمَعِهَا مَا فَرَّقَ الدَّهْرُ مِنْ شَمْلِي
لَعَمْرُؤُ اللَّيَالِي إِنْ يَكُنْ طَالَ نَزْعُهَا ^(٢)	لَقَدْ قَرَّطَسْتُ ^(٣) بِالنَّبْلِ فِي مَقْتَلِ النَّبْلِ
تَحَاتَّ بَادِيَانِي وَإِنْ مَارَبِي	لَسَاعَةً فِي عَرَضِ أُمْنِيَّةٍ عَطْلِي
أُخْصِرُ لِقَمِي بِالْقَلَى وَكَأَنَّمَا	يَبِيتُ لَدَى الْفَهْمِ الزَّمَانُ عَلَى دَحْلِي ^(٤)
وَأُجِئُ عَلَى تَطْمِي لِكُلِّ حَقْلَادَةٍ	مَفْصَلَةِ السَّمْطَيْنِ ^(٥) بِالْمُتَطَوِّلِ الْفَصْلِ

(١) منصلت : ماض قاطع .

(٢) النزع : الرى بالسهم والتبال .

(٣) قرطست : أصابت .

(٤) اللجل : الثأر .

(٥) السط : المحيط فيه الخرز ، وإلا فهو السلك .

ولو أننى أستطيع كى أرضي العدى : شريت ببعض العلم حظاً من الجهل
أمتولة الأجفان^(١) مالك والماء : ألم ترك الأيام نجماً هوى قبل ؟
أقلى بكاء لست أول حرّة
طوت بالأمى كشحاً^(٢) على مخص الشكل

وفى « أم موسى » عبرة إذ رمت به .. إلى اليم في التابوت^(٣) فاعتبرى واسلي
ولله فينا علم غيب وحسبنا به عند جور الدهر من حكم عدل^(٤)
وإن رجائى فى الهام ابن جهور .. لمستحكم الأسباب مستحصد^(٥) الخبل
كريم عريق فى الكرام وقلم .. يرى الفرع إلا مستمداً من الأصل
نهوض بأعباء الرواة والنقى .. سحب لأذيال السيادة والفضل
إذا أشكل الخطب الملم فإنه .. وآراه كالخط يوضح بالشكل
يرف على التأميل لألاء بشره .. كما راف لألاء الحسام على الصقل^(٦)
محاسن ما للحسن فى البدر علة .. سوى أنها باتت تميل فيستمل
وتفى عن اللدح اكتفاء بسرّوها^(٧) .. غنى المقلة الكدلاء عن زينة الكحل
أبا الحزم إني فى عتابك مائل .. على جانب تأوى إليه الملا سهل

(١) الخطاب جناً لأمه .

(٢) الكشح : المعاصرة يقال طوى كشحاً عن فلان أى أعرض عنه وقطعه .

(٣) يشير إلى قصة موسى وما كان من وحى الله لأمه أن تلقيه فى اليم إذا خافت عليه ، فألقته ، فالتقطته امرأة فرعون .

(٤) عدل : عادل .

(٥) مستحصد : قوى متين .

(٦) يرف : يتلأأ ويرق . يشبه لألاء بشر أبى الحزم بلألاء السيف حين يجلى ويصقل .

(٧) السرور : الشرف .

حَامِي شَكْوَى صَبَحْتِكَ هُوَادِلًا (١)
 جَوَادِلًا إِذَا اسْتَنْ (٢) الْجِيَادُ إِلَى مَدَى
 ثَوَى صَافِنَا (٣) فِي مَرْبَطِ الْهُونِ بَشْتِكِي
 أَفَى الْعَدْلِ أَنْ وَافَتَكَ تَتْرَى رَسَائِلِي
 أَعْدُكَ لِلْجَلَى وَأَمَلُ أَنْ أُرَى
 وَمَا زَالَ وَعْدُ النَّفْسِ لِي مِنْكَ بِالْمَنَى
 أَتَنْ زَعَمِ الْوَاشُونَ مَا لَيْسَ مَزْعَمًا
 وَأُضْدِي (٤) إِلَى إِسْعَافِكَ السَّائِفِ الْجَنَى
 وَلَوْ أَتْنِي وَاقَعْتُ عَمْدًا خَطِيئَةً
 فَلَمْ أَسْتَبِرْ حَرْبَ الْفِجَارِ (٥) وَلَمْ أَطْعُ
 وَمِثْلِي قَدْ تَهَفُو بِهِ نَشْوَةَ الصَّبَا
 وَإِنِّي لَتَنْهَانِي نُهَائِي عَنْ التِّي

تُنَادِيكَ مِنْ أَفْنَانٍ آدَابِي الْهُدْلِ
 تَمْطَرُ (٦) فَاسْتَوَلَى عَلَى أَمَدِ الْخُصْلِ (٧)
 بَتَصْهَالِهِ مَا نَالَهُ مِنْ أَذَى الشَّكْلِ (٨)
 فَلَمْ تَتْرُكْنِ وَضْعًا لَهَا فِي يَدَيَّ عَدْلٍ
 بِنُعْمَاكَ مَوْسُومًا وَمَا أَنَا بِالْفُغْلِ
 كَأَنِّي بِهِ قَدْ شِمْتُ بَارِقَةَ الْمَحَلِ (٩)
 تَعْدُرُ (١٠) فِي نَصْرِي وَتُعْذِرُ فِي خَذَلِي
 وَأُضْحِي (١١) لَدَى إِنْصَافِكَ السَّائِفِ الظِّلِّ
 لَمَّا كَانَ يَدْعَا مِنْ سَجَايَاكَ أَنْ تُمْلِي (١٢)
 مَسِيلَةً إِذْ قَالَ إِنِّي مِنَ الرُّسُلِ
 وَمِثْلِكَ مَنْ يَعْفُو وَمَالِكَ مِنْ مِثْلِ
 أَشَادَ بِهَا الْوَاشِي وَيَعْقِلُنِي (١٣) عَقْلِي

(١) هُوَادِلًا : جمع هَادِلَةٍ مِنَ الْهَدِيلِ وَهُوَ صَوْتُ الْحِمَامِ ، وَفِي آخِرِ الْبَيْتِ وَصِفَ الْأَفْنَانُ بِأَنَّهُا هَدَلٌ مِنْ تَهَدَلَتْ أَيْ تَدَلَّتْ .

(٢) اسْتَنْ الْجِيَادُ : مضت مسرعة في السباق .

(٣) تَمْطَرُ : انصب .

(٤) اسْتَوَلَى عَلَى أَمَدِ الْخُصْلِ : كَتَابَةٌ عَنْ إِحْرَازِ قَصَبِ السِّبْقِ ، وَالْخُصْلُ : بُلُوغُ الْمَدْفِ .

(٥) الصَّافِنُ مِنَ الْجِيَادِ : الَّذِي قَامَ عَلَى ثَلَاثَةِ قَوَائِمٍ وَلَوَى الرَّابِعَةَ .

(٦) الشَّكْلُ : شَدَّ قَوَائِمِ الدَّابَّةِ بِالشَّكَالِ

(٧) - شَامَ الْبَرْقِ : رَأَاهُ ، وَبَارِقَةُ الْمَحَلِّ لَا تَمْطَرُ ، وَالْكَتَابَةُ وَاضِحَةٌ .

(٨) تَعْدُرُ الْأَوَّلَى : تَقْصُرُ ، وَتُعْذِرُ الثَّانِيَةَ : تَلْتَسِ الْعُذْرَ .

(٩) أَصْدَى : أَعْطَشَ .

(١٠) أَضْحَى : مِنْ ضَحَا يَضْحِي إِذَا بَرَزَ لِلشَّمْسِ .

(١١) تُمْلِي : تَهْمَلُ .

(١٢) كَانَتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ بَيْنَ قُرَيْشٍ وَبَنِي عَامِرٍ وَافْتَهَكَتَ فِيهَا الثَّانِيَةَ حَرَمَةَ الْأَشْهَرِ الْحَرَمِ .

(١٣) يَعْقِلُنِي : يَجْبِسُنِي .

أَنْقَضَ فَيْكَ الْمَدْحَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ فَلَا أَقْتَدِي إِلَّا بِنَاقِضَةٍ ^(١) الْغَزْلِ
 ذَمَّمْتُ إِذَا عَهْدَ الْحَيَاةِ وَلَا يَزَلُ مُرَّاً عَلَى الْأَيَّامِ طَعْمُهُمَا الْمُحَلِّ
 وَمَا كُنْتُ بِالْمُهْدَى إِلَى السُّوْدَدِ الْخَلَا وَلَا بِالْمُسَى الْقَوْلِ فِي الْحَسَنِ الْفِعْلِ
 وَمَا لِي لَا أَتْنِي بِآلَاءِ مُنْعِمٍ إِذَا الرُّوضُ أَتْنَى بِالنَّسِيمِ عَلَى الطَّلِّ
 هِيَ النَّعْلُ زَلَّتْ بِي فَهَلْ أَنْتَ مُكَذِّبٌ لَقِيلِ الْأَعَادَى إِنَّهَا زَلَّةُ الْحَلْسِ ^(٢)
 أَلَا إِنْ ظَنَى بَيْنَ فِعْلَيْكَ وَاقِفٌ وَقُوفَ الْهَوَى بَيْنَ الْقَطِيعَةِ وَالْوَصْلِ
 فَإِنْ تُنَمِّنَ لِي مِنْكَ الْأَمَانِي فَشِيمَةٌ لَذَاكَ الْفَعَالِ الْقَصْدَ وَالْخُلُقِ الرَّسْلِ ^(٣)
 وَإِلْجَنَيْتُ الْأَنْسَ مِنْ وَحْشَةِ النَّوَى وَهَوَلَ الشَّرَى بَيْنَ الْمُطَيَّةِ وَالرَّحْلِ ^(٤)
 سَيِّفَنِي بِمَا ضَيَّعْتَ مِنِّي حَافِظٌ وَيُلْقِي لَمَّا أَرَخَصْتَ مِنْ خَطَرِي مُبْلِي
 وَأَيْنَ جَوَابُكَ مِنْكَ تَرْضَى بِهِ الْعَلَا إِذَا سَأَلْتَنِي عَنْكَ أَلْسَنَةُ الْحَفْلِ

سهر وعذاب

لم يستمع أبو الحزم إلى تولات الشاعر في القصيدة السابقة ، فنظم هذه القصيدة يبر فيها من جهة عن سهاد وأرقه لهجر حبيبته ، ومن جهة ثانية عن عذابه في السجن وألمه « وفي أثناء ذلك نراه يتعزى بإنحاء الدهر على الأحرار ، مفتخراً بشعره وما يحسنه منه ، مذكراً أبا الحزم بما دبحه فيه من ثناء عطر » يقول :

مَا جَالَ بَعْدُكَ لَحْظِي فِي سَنَا الْقَمَرِ إِلَّا ذَكَرْتُكَ ذِكْرَ الْعَيْنِ بِالْأَثَرِ ^(٥)
 وَلَا اسْتَطَلْتُ دَمًا ^(٦) اللَّيْلِ مِنْ أَسْفٍ إِلَّا عَلَى لَيْلَةٍ سَرَّتْ مَعَ الْقَصْرِ

(١) يشير إلى الآية الكريمة « وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ غَزْلَهُمْ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا » .

(٢) الحسل « السوق الشديد أو الخسة وبكسر الحاء : ولد الضب .

(٣) تمنى ، تقدر ، الفعال ، الفعل الجميل ، القصد ، العدل ، الرسل ، السهل والطلق .

(٤) يشير إلى أنه سيرحل إن لم يحظ منه بالصقع الجميل .

(٥) يقول إنه سيذكرها ذكر من يرى عين الشيء بروية أثره .

(٦) الدماء : بقية الروح .

ناهيك من سهرٍ بَرَحَ نالقه
 ياليت ذاك السوادَ الجونَ (١) متَّصِلُ
 أما الضنى فجنته لحظةً عن (٢)
 فهت معنى الهوى من وحي طَرْفك لى
 والصدرُ مذ وردت رفهاً نواحيه
 حُسنُ أفانينُ لم تستوفِ أعيننا
 واهاً لثغركِ ثغراً بات يكلؤه
 يقظان لم يكتحل غمضاً مراقبةً
 لا لهو أيامه الخالى بمرتجع
 إذ لا التحيةُ إيماءً مُحالسةً
 متى كان لم يكن إلا تذكرها
 من يسأل الناسَ عن حالٍ فشاها
 لم تطوِ بُردَ شبابى كبرةً وأرى
 قبل الثلاثين إذ عهدُ الصبا كُتب (٣)

شوقٌ إلى ما انقضى من ذلك السمرِ
 قد استعار سواد القلب والبصر (٤)
 كأنها والردى جاءا على قدرِ
 إنَّ الحوارَ لمفهومٌ من الحوَرِ
 تومُ القلائد لم تمنح إلى صدر (٥)
 غاياته بأفانين من النظرِ
 غيران تُسرى عواليه (٦) إلى الثغْرِ
 لرباط الجأش مقدام على الفررِ (٧)
 ولا نعيم ليليه بمنتظرِ
 ولا الزيارة إلامٌ على خطرِ
 إن الغرام لمعتادٌ مع الذِّكرِ
 محضُ العيان الذى يُفنى عن الخبرِ
 برقُ المشيبِ اعتلى فى غارض (٨) الشعرِ
 وللشبيبة غُصْنٌ غيرُ مُهتَصِرِ (٩)

(١) الجون : الحالك .

(٢) يتنى لو أن سواد الليل استعار سواد قلبه وبصره حتى يطول ويدوم .

(٣) عن : عارضة .

(٤) الورود الرفه : الورود الدائم ، وتوم القلائد : اللآلىء المزدوجة : والصدر : الرجوع بعد الورود .

(٥) العوالى : الريح .

(٦) الثغر : جمع ثغرة ، وهى نقرة النحر .

(٧) الفرر : الخطر .

(٨) الغارض : صفحة الخد .

(٩) كُتب : قريب .

(١٠) مهتصر : مائل .

ها إنَّها لوعَةٌ في الصدر قاذِحةٌ
 لا يَهْدَأُ الشامتَ للرتاحِ خاطِرُهُ
 هل الرياحُ بنجمِ الأرضِ عاصفةٌ
 إن طال في السَّجْنِ إيداعِي فلا عجبٌ
 وإن يُثَبِّطُ ، أبا الحزَمِ الرِّضا ، قدرُهُ
 ما للذنوبِ التي جآني كباثرها
 من لم أزلْ من تَأْتِيهِ على ثِقَةٍ
 ذوالشيمَةِ الرَّسُلِ ^(١) إن هيجتْ حَفِيفَتُهُ
 وزيرُ سَلَمٍ كَفَاهُ يُمْنُ طائِرِهِ
 أغتتْ قريحته مَعْنَى تجارِيهِ
 كم اشترى بِكَرْمِي عَيْنِهِ من سَمَرِهِ
 في حَضْرَةٍ غابَ صَرَفُ الدهرِ خَشِيقَتُهُ
 ممتَعٌ بالريِّعِ الطَّلُقِ نازِلُها
 ما إن يزال يَبْثُ الثَّبَتُ في جِلْدِهِ ^(٢)
 وكنتُ أحسبني والنجمَ في قَرْنٍ
 نارَ الأسي ومشيبي طائرُ الشَّرَرِ
 أنِّي مَعْنَى الأمانِي ضائعُ الخطَرِ
 أم الكسوفُ لغيرِ الشمسِ والقمرِ ؟
 قد يودَعُ الجفنَ حدُّ الصارمِ الذِّكْرِ
 عن كشفِ ضُرِّي فلا عَتَبَ على القَدَرِ
 غيرِي يُحَمِّلُنِي أوزارها وَزَرِي ^(٣)
 ولم أَيْتْ من تَجْنِيهِ على حَذَرِ
 والجانبِ السَّهْلِ والمُسْتَقْبَلِ البَسَرِ ^(٤)
 شَوْمَ الحروبِ ورأى مُحْصَدُ المِرَرِ ^(٥)
 ونابتِ اللَّمَحَةُ العجَلِي عن الفِكرِ
 هدوءَ عَيْنِ الهدى في ذلك للسَّهَرِ
 عنها ونام ^(٦) القَطَا فيها فلم يُثَرِ
 يُلْهِمُهُ عن طيبِ آصالِ نَدَى بُكَرٍ ^(٧)
 مذ ساسها ويُفيضُ الماءُ من حَجَرِ
 فقيم أصبحتُ منحطًّا إلى العَفْرِ ^(٨)

(١) الوزر : الظهير والمعين ويريد أبا الحزم .

(٢) الرسل : السمحة .

(٣) اليسر : السهل .

(٤) المِرر : جمع مرة ، وهي قوة الخلق وشدتو ، ومحصد : قوى متين .

(٥) القطا : جمع قطاة ، طير يشبه الحمام ، يذكر كثيراً في الشعر الجاهل والإبلاسي ،

ونومه كناية عن الأمن والدعة .

(٦) البكر جمع بكرة : أوائل النهار ضد الآصال .

(٧) الجلد : الأرض الصلبة المستوية .

(٨) العفر : التراب ، ووجه الأرض .

أَحِين رَفَّ عَلَى الْآفَاقِ مِنْ أَدْبَى
وَسِيلَةٍ سَبَبٌ إِلَّا تَكُنْ نَسَبًا
وَبَائِنٍ مِنْ ثَنَاءِ حُسْنِهِ مَثَلٌ
يُسْتَوْدَعُ الصُّخْفَ لَا تَخْفَى نَوَاجِهُ (٢)
لِي فِي اعْتِمَادِكَ بِالتَّامِيلِ سَابِقَةٌ
فَقِيمَ غَضَتْ هُمُومِي مِنْ عُلَا هَمَمِي
هَلْ مِنْ سَبِيلٍ فَمَاءُ الْعَتَبِ لِي أَسِنَّ
نَذَرْتُ شُكْرَكَ لَا أَنْسَى الْوَفَاءَ بِدِ
لَا تَلَهُ عَنِّي فَلَمْ أَسْأَلْكَ مَعْتَسِفًا
هَبْنِي جِهَلْتُ فَكَانَ الصَّنْعُ سَيِّئَةً
إِنْ السِّيَادَةَ بِالْإِعْضَاءِ لَا بِسَةِ
فَاشْفَعُ أَكُنْ مِثْلَ مَطُورٍ بِلَدَّتِهِ
وَالْبَسَ مِنَ النِّعْمَةِ الْخَضِرَاءِ أَيْكَتَهَا
نَعِيمَ جَنَّةٍ دُنْيَا إِنَّ هِيَ انصَرَمَتْ

- (١) بائن : فائق في الحسن ، من بانه يبوله : فاقده في المزية ، والطرور : جوانب الثوب . - وعلم الطرور : المميز بعلامات دالة .
(٢) النوافج : جمع نافجة وهي وعاء المسك .
(٣) الصرر : جمع صرة وهي الكيس .
(٤) حاص : مال .
(٥) الحصر : البرودة ، والعتي : الرضا ، يقول : هل من سبيل إلى رضاك الذي يشبه الماء العذب الحصر فإن ماء العتب أصبح أسنا كدرا .
(٦) يقول إنه لم يسأله مستحيلا ، فلم يحاله أن يرد إليه الصبا وقد أوفى على المشيب .

ألم وعزاء

أرسل الشاعر هذه القصيدة من سجنه إلى صديقه الكاتب المشهور أبي حفص بن بزيد يألم من حصاده ، ويعجب لألفه وكيف أنهم لا يسمعون في خلاصه ■ ويقلب صفحات الزين أمامه متعزياً عن كآبته ، ويتحدث أخيراً إلى صديقه ، فيسأله أن لا يكف عن مجونه ، فهو يجب له أن يكون سعيداً في حين هو شقي بائس في غياب السجن وظلماته ، يقول :

ما على ظنِّي باسٌ يَجْزَحُ الدهرُ وَيَأْسُو
ربما أشرف بالمرء على الآمال يأسُ
ولقد يُنْجِيكَ إغفا لٌ وَيُرْذِيكَ احتراسُ
والحاذيرُ سِهامٌ والقادِرُ قِياسُ^(١)
ولكم أجدى قعودٌ ولكم أكْدى^(٢) التماسُ
وكذا الدهرُ ، إذا ما عزَّ ناسٌ ذلَّ ناسُ
وبنو الأيامِ أخِياءُ^(٣) ف : سِراةٌ وخِياسُ
نلتبس الدنيا ولكن يا أبا حفص وما سا
يا أبا حفص وما سا والك في فهمِ إياسُ^(٤)
من سنا^(٥) رأيك لي في غسق^(٦) الخطب اقتباسُ

(١) قياس هنا : جمع قوس .

(٢) أكدى : أخفق .

(٣) أخِياء : مختلفون ■ سِراة : شرفاء .

(٤) إياس بن معاوية من قضاة العراق في عصر بني أمية وكان مشهوراً بالذكاء والفهم والفراسة .

قال أبو تمام يملح أحد بن المعتصم :

إقدام عمرو في سباحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس

(٥) سنا : ضو .

(٦) غسق : ظلمة .

وودادى لك نصرٌ لم يخالفه قياسُ
 أنا حيرانٌ ، وللأمر وضوحٌ والتباسُ
 ما ترى فى معشرٍ حا لوا عن العهد وخاسوا^(١)
 وراونى سامرياً^(٢) يُتَقَى منه المساسُ
 أذوبُ هامت بلحى فانتهاشُ وانتهاشُ^(٣)
 كلهم يسأل عن حا لى وللذنب اعتساسُ^(٤)
 إن قسا الدهرُ فلما من الصخر انبجاسُ
 ولئن أمستُ محبو ساً فللغيث احتباسُ
 يلبدُ^(٥) الوردُ^(٦) السبتي وله بعدُ إفتراسُ
 فتأملُ كيف يَفشى مُقَلَّةُ المجدِ النعاسُ
 ويُقَب المسكُ فى الترابِ فيوطأ ويداسُ
 لا يكن عهدك وزداً إن عهدي لك آسُ^(٧)
 وأدِرْ ذكرى كاساً ما امتطتْ كفك كاسُ
 واغتم صفو الليالى إنما العيشُ اختلاسُ
 وعسى أن يَسْمَح الدهرُ فقد طال الشَّماسُ^(٨)

(١) خاسوا : خافوا .

(٢) السامرى : قصته مشهورة فى القرآن الكريم . كان من قوم موسى ، فعبد العجل وتحاماه

قومه .

(٣) الانتهاش : العفن .

(٤) الاعتساس : طلب الصيد بالليل .

(٥) يلبد : يلصق بالأرض .

(٦) الورد : الأسد ، والسبتي : الجوى .

(٧) يشير إلى أن الورد يسرع ذبوله بخلاف الآس .

(٨) الشَّماس : التمرد والمصيان .

جناية

نظم الشاعر هذه القصيدة بعد ثورة بني ذكوان على أبي الوليد بن جهور سنة ٤٤٠ للهجرة، ومر بنا أن أبا الوليد قضى على هذه الثورة، والشاعر محزون مضطرب « يتصل من تبعه الثورة بل إنه يعلن توبته عما يدل على أن ظنونا أحاطت به وهماً وجهت إليه « وخاصة أن صلات قوية كانت منعقدة بينه وبين هذا البيت « بيت بني ذكوان « ولعله لذلك يهاجمهم في القصيدة مهاجمة عنيفة . يقول فزعاً إلى ساحة أبي الوليد وعطفه آملاً أن يقلبه من عثرته :

هل النداء الذي أعلنتُ مُسْتَمِعُ أم في المئاتِ ^(١) التي قدّمتُ مُنْتَفِعُ
ليس الركونُ إلى الدنيا دليلَ حِجَى فإنها دُولٌ أيامها مُتَعُ
تأتى الرزايا نظاماً في حوادثها إذ الفوائدُ في أثنائها لَمُعُ ^(٢)
أهلُ النباهة أمثالُ الدهرمُ يقصرهم دون غاياتِ المني وَلَعُ
لولا بنو جهورٍ ما أشرقتْ همى كمثل بيض الليالي دونها الدَّرْعُ ^(٣)
همُ الملوك ملوك الأرضِ دونهمُ غيدُ السَّوَالِفِ في أجيادها تَلَعُ ^(٤)
من الورى إن يفوقهم فلا عجبُ لذلك الشَّهْرُ من أيامه أُلْجَعُ
قومٌ متى تَخْتَفِلُ في وصف سُودِهم لا يأخذ الوصفُ إلاّ بعضَ ما يدَعُ

(١) يريد بالمئات مئات الأبيات التي ملح بها أبا الوليد .

(٢) لمع : يريد أنها متفرقة غير متصلة « فهي قليلة .

(٣) الدرع : السواد .

(٤) غيد : جمع أغيد وهو المائل ، والسوالف « جمع سالفة وهي صفحة العنق، والتلع : طول العنق . يقول إن ملوك الأرض الذين يمشون مختالين قد لووا أعناقهم كبراً وعجباً دون بني جهور .

تَجَمَّهَ الدهرُ فانصابتْ لهم عَرَرٌ
 باهتَ وجوهُهُمُ الأعراضُ من كَرَمِ
 سَرَوْ^(٢) تراحمُ في وصفِ المديحِ له
 أبو الوليد قد استوفى مناقبَهُمُ
 هو الكريمُ الذي سَنَّ الكرامُ له
 من عِترَةٍ أُلهمته في تعاقبها
 مُهَذَّبٌ أَخْلَصَتْهُ أَوْلِيَّتُهُ
 إن السيوف إذا ما طاب جَوهرُها
 جَدَلانُ يستضحكُ الأيامُ عن شِمِ
 كالباردِ العَذْبِ لذتْ من مواردِ
 ما به الطلاقة في أسرارها دُفِعَ^(١)
 فكلمًا راقَ مَرَأَى طاب مُشْتَمِعُ
 محاسنُ الشعرِ حتى بينها قُرْعُ
 فلتتفاريق^(٣) منها فيه مُجْتَمِعُ
 زَهْرُ المَساعِي فلم تَسْتَهْوِهِ البِدْعُ^(٤)
 أن المكارمَ إيصاءً^(٥) بها شَرِعُ^(٦)
 كالسيفِ بالغِ في إخلاصه الصنْعُ^(٧)
 في أولِ الطينِ لم يَمْلُقْ بها طَبِيعُ^(٨)
 كالروضِ تضحكُ منه في الرُّبَى قِطْعُ
 كالباردِ العَذْبِ لذتْ من مواردِ

لشاربٍ - غِب^(٩) تبريحِ الصدى^(١٠) - جُرْعُ
 قل للوزير الذي تأميلة وَرَى
 إن ضاق مُضْطَرَبُ^(١١) أو هال مُطْلَعُ^(١٢)

(١) انصابت : تبلجت ، الفرور : الجياه ، الطلاقة : الناحية ، وأسرار هنا : سرافير الوجه . ودفع : جمع دفعة وهي الدفقة من الماء .

(٢) سرؤ : شرف .

(٣) يريد أنه اجتمع لابن جهور ما تفرق في الملوك من المناقب والفضائل .

(٤) يريد أنه يميز على السنة ولا يتبع بدعة من البدع . وهو يمدحه كثيراً بالتقوى .

(٥) إيصاء : يريد أنهم يتواصون بها .

(٦) شرع : جمع شرعة وهي الشريعة والمذهب .

(٧) الصنع : الصناعات الخادقة .

(٨) طبع : صدأ أو عيب .

(٩) غِب : بعد .

(١٠) الصدى : العطش .

(١١) المضطرب : البير في تناكب الأرض .

(١٢) المطلع : الاطلاع على ما يخفى ، لقوله هال .

أَصْبَحَ^(١) لَهْمَسِ عَتَابٍ نَحْتَهُ مِقَّةٌ
 مَا لِلْعَتَابِ الَّذِي أَحْصَفَتْ^(٢) عُقْدَتَهُ
 أَلَسْتُ أَهْلَ اخْتِصَاصٍ مِنْكَ تُلَبِّسُنِي
 لَمْ آتِ فِي الْحَالِ مِنْ سَعْيٍ لَدَيْكَ وَفِي^(٣)
 لَا تَسْتَجِزُ وَضَعُ قَدْرِي بَعْدَ رَفْعِكَ
 تَقَدَّمْتُ لَكَ تَعْمَى رَادَهَا^(٤) أَمَلِي
 مَا زِلَ يُونُقُ شَكْرِي فِي مَوَاقِعِهَا
 شَكْرٌ يَرُوقُ وَيَرْضَى طِيبُ طَفْعَتِهِ
 ظَنَّ الْعِدَى إِذْ أَغْبَتْ^(٥) أَنَّهَا انْقَطَعَتْ
 لَا بَأْسَ بِالْأَمْرِ — إِنْ سَاءَتْ مُبَادِنُهُ
 إِنْ الْإِلَى كُنْتُ مِنْ قَبْلِ افْتِضَاحِهِمْ
 لَمْ أَحْظَ إِذْ هُمْ عِدَى يَادٍ نَفَاقِهِمْ

تَكَلَّفُ النَّفْسُ مِنْهُ فَوْقَ مَا تَسَعُ
 قَدْ خَامَرَ^(٦) الْقَلْبَ مِنْ تَضْيِيعِهِ جَزَعُ
 جَمَالَ سِيَاهُ أَمْ مَافِي مُضْطَنَعٍ^(٧)
 بَلْ بِالْجُدُودِ^(٨) تَطِيرُ الْحَالُ أَوْ تَقَعُ
 فَاللَّهُ لَا يَرْفَعُ الْقَدَرَ الَّذِي تَضَعُ
 فِي جَانِبٍ هُوَ لِلْإِنْسَانِ مُنْتَجِعُ
 كَالْمُرْنِ تَوْنِقُ فِي آثَارِهِ التَّرَعُ^(٩)
 فِي طِيَّةِ نَفَحَاتٍ بَيْنَهَا خَلَعُ
 هِيَهَاتَ لَيْسَ لِمَدِّ الْبَحْرِ مُنْقَطَعُ
 نَفْسُ الشَّفِيقِ — إِذَا مَسَرَّتْ الرَّجْعُ^(١٠)
 مِثْلَ الشَّجَا فِي لَهَا هُمْ^(١١) لَيْسَ يُتَزَعُ
 إِلَّا كَمَا كُنْتُ أَحْظَى إِذْ هُمْ شَيْعٍ^(١٢)

(١) أصبح : أزهف السبع . المقة : الحبة .

(٢) أحصفت : أحكت .

(٣) خامر : غالط .

(٤) مضطنع : مكان للصنعة .

(٥) وفي : تقصير ، يقول : لم آت وفي أي لم أرتكب تقصيراً .

(٦) الجودود : الخطوط .

(٧) رادها : تقدمها .

(٨) الترع : جمع ترعة وهي الروضة في المكان العالي .

(٩) أغبت : تأخرت .

(١٠) الرجع : جمع رجعة ، يريد بها هنا الأواخر في مقابل المبادئ والأوائل .

(١١) لمي : جمع لهأة ، وهي الخلق . وقد بدأ يتحدث منذ هذا البيت عن بني ذكوان .

وجعلهم أعداءه وحساده على ما يبدع من شعره في أبي الوليد « كما هو واضح في الآيات التالية .

(١٢) يقول إنهم كانوا ينافقونه فيظهرون له الصداقة وهم أعداؤه ، وهو في ذلك كله يتبرأ منهم .

ومن جريرتهم .

ما غاظهم غير ما سبّرت من مدح
 كم غرة لي تلقّا قلوبهم
 إذا تأملت [حجّ] غب غشهم
 تلك الرانين (٥) لم يصلح لها شم (٦)
 أو دعت نعاك منهم شرّ مفترس
 لقد جزّتهم جوازي الدهر عن مسن
 لا زال جدك بالأعداء يصرعهم
 في صائك (١) المسك من أنفامها فنع (٢)
 كما تلقى شهاب الموقد الشمع (٣)
 لم يخف من قلق الإصباح منصدع (٤)
 فكان أهون ما نيلت به الجدع (٧)
 لن يكرّم الغرس حتى تكرّم البقع (٨)
 مضت فلم يثنيهم عن غمطها ورع
 إن كان بين جدود الناس مضطرع

٣ - نماذج المديح ابتهاج

كان ابن زيدون كما أسلفنا صديقاً لأبي الوليد بن جهور ، فلما توفى أبوه سنة ٤٣٥ للهجرة
 واعتلى عرش قرطبة من بعده ابتهج قلب الشاعر ، وأحسن كأن الدنيا تدق بشارتها من حوله ، فنظم هذه
 القصيدة يعبر عن فرحة نفسه ، وقد عاودته ذكرى ولادة ، فاجتمعت النشوتان : نشوة الحب ونشوة
 النبطة بالصديق وولايته التي ستحقق أمانيه ، يقول :

ما للمدام تديرها عيناك في سكر الصبا عطفاك ؟

-
- (١) صائك : لائق ومائل .
 (٢) الفنع : نفحة المسك .
 (٣) يقول كم من قصيدة لي كانت توقد قلوبهم بنار الحسد فيطلقونها كما يطلق الشمع نار
 الموقد له ولها اللادع .
 (٤) انصدع الصبح : انشق عن الضياء .
 (٥) الرانين : جمع عرنين وهو أعلى الأنف .
 (٦) الشم : ارتفاع قصبة الأنف مع استوائها ، والعرب يكنون بالشحم عن الأنفة والعزة .
 (٧) الجدع : قطع الأنف .
 (٨) البقع : جمع بقعة وهي القطعة من الأرض .

هلا مرزجت لعاشقك سلافها
 بل ما عليك وقد تحضت لك الهوى
 ناهيك ظلماً أن أصرّ بي الصدى
 واهماً لعطفك والزمان كأنما
 والليل مها طال . قصر طوله
 ولطالما اعتلّ النسيم فخلته
 إن تآلنى سنة النجوم خلية
 أو تحتنى بالهجر فى نادى القلى
 أما مئى نفسى فأنت جميعها
 يدنو بوصلك حين شط^(٨) مزاره
 ولئن تجنبت الرشاد بغدرة
 للجهورى أبى الوليد خلانق
 ملك يسوس الدهر منه مذهب
 يرود ظلمك^(١) أو بعذب لملك^(٢)
 فى أن أفوز بخطوة المسواك^(٣)
 برحاً^(٤) ونال الرى عود أراك
 صبغت غضارته^(٥) يرود صباك
 هانى - وقد غفل الرقيب - وهاك
 شكواى رقت فاقتضت شكواك
 فلطالما نافرت فى كراك^(٦)
 فلكم حلت إلى الوصال حباك^(٧)
 يا ليتنى أصبحت بعض مناك
 وهم أكاد به أقبل فاك
 لم يهوى بى فى النى غير هواك
 كالروض أضحك الغمام الباكي
 تديره للملك خير ملاك^(٩)

(١) الظلم : الريق وماء الأسنان . ويرود : بارد .

(٢) اللى : سمة فى الشفة .

(٣) المسواك : جمعه مساويك : عود تطهر وتنظف به الأسنان . ولقد استعمل بشار كلمة
 المسواك استعمالاً لطيفاً حيث يقول :

يا أطيّب الناس ريقاً غير مختبر إلا شهادة أطراف المساويك

(٤) البرح : الشدة والمشقة .

(٥) الغضارة : الهبة .

(٦) الكرى : النوم . ونافر هنا : عادى .

(٧) القل : البغض الشديد . واحي : اشتعل بالشوب مشتق من الحياة وتجمع على حي ،

أى إن كنت تهجرينى الآن فكم وصلنى .

(٨) شط : بعد .

(٩) ملاك الأمر : قولاه .

جَارَى أَبَاهُ بَعْدَ مَا فَاتَ الْمَدَى
 شَمْسُ النَّهَارِ وَبَذَرُهُ وَنَجْمُهُ
 يَسْتَوْضِحُ السَّارُونَ زُهْرًا كَوَاكِبُ
 بُشْرَاكِ يَا دُنْيَا وَبُشْرَانَا مَعًا
 تُكَلِّفُنِي السِّيَادَةَ ثُمَّ (٢) إِنْ أَضَلَّهَا
 وَإِذَا سَمِعْتَ بِوَاحِدٍ جُمِعَتْ لَهُ
 صَحْصَامُ بَادِرَةٍ (٤) وَطَوْدُ سَكِينَةٍ
 طَلَقَ يُفَنِّدُ فِي السَّمَاحِ ، وَجَاهِلٌ
 صَنَعَ (٦) الضَّيِيرَ إِذَا أَجَالَ بِمُهْرَقٍ (٧)
 نَظَمَ الْبَلَاغَةَ فِي خِلَالِ سَطُورِهِ
 نَادَى مَسَاعِيَةَ الزَّمَانِ مُنَافِسًا
 مَا الْوَرْدُ فِي بَجْنَاهُ سَامَرَهُ النَّدَى

(١) الفرقه والسالك : نجان نيران .

(٢) ثم : هناك .

(٣) السرو : الشرف .

(٤) صصام بادرة : سيف حدة .

(٥) الجذل : عود الشجرة . وجذل الحكاك : جذل ينصب لتحكك به الإبل الجربي ، ويقال للرجل جذل حكاك أى يشتكى برأيه وتجربته . ومنه المثل القائل : أنا عليها المرجب وجذيلها المحكك .

(٦) صنع الضيير : صنع حاذق .

(٧) المهرق : الصحيفة .

(٨) إيشاك : إسراع .

(٩) توم اللآلى : المزودج منها .

كلا ولا المسكُ النَّمومُ ^(١) أَرِيحُهُ
 اللَّهُوْ ذِكْرُكَ لَا غِنَاهُ مُرْجِعُ ^(٢)
 طَارَتْ إِلَيْكَ بِأَوْلِيائِكَ هِرَّةٌ
 يَأْيُهَا الْقَمَرُ الَّذِي لَسَنَاهُ
 فَرَحُ الرِّيَاسَةِ إِذْ مَلَكَتْ عَيْنَاهَا
 مِنْ قَالَ إِنَّكَ لَسْتَ أَوْحَدَ فِي النَّهْيِ
 قَلَّدَنِي الرَّأْيَ الْجَلِيلَ فَإِنَّهُ
 وَإِذَا تَحَدَّثَ الْحَوَادِثُ بِالرَّيْنَا ^(٣)
 وَالذَّجْنُ لِلشَّمْسِ الْمَنِيرَةِ حَاجِبٌ
 دَامَتْ حَيَاتُكَ مَا اسْتَدِمَّتْ فَلَمْ تَزَلْ
 مُتَعَطِّراً إِلَّا بِوَسْمِ ثَنَّاكَ ^(٤)
 يَفْتَنُ فِي الْإِطْلَاقِ وَالْإِمْسَاكَ ^(٥)
 تَهْفُو لَهَا أَسْفَافُ قُلُوبٍ عِدَاكَ
 وَسَنَاهُ ^(٦) تَعَشُو ^(٧) السَّيْبُ فِي الْأَفْلَاكِ
 فَرَحُ الْعُرُوسِ بِصَحَّةِ الْإِمْلَاكِ ^(٨)
 وَالصَّالِحَاتِ فَدَانَ بِالْإِشْرَاكِ
 حَسْبِي لِيَوْمِي زِينَةٌ وَعِرَاكِ
 شَزْرًا إِلَى قَقْلٍ لَهَا : إِيَّاكَ
 وَالْجَفْنُ مَثْوَى الصَّارِمِ الْفَتَاكِ
 تَحْيَا بِكَ الْأَخْطَارُ بَعْدَ هَلَاكِ

(١) النوم : الساطع .

(٢) الثنا : الثناء .

(٣) مرجع : مردد .

(٤) الإطلاق والإمساك : الانطلاق بالصوت ثم النزول به .

(٥) السنا بالقصر : الضوء ، وبالمد : الشرف والرفعة .

(٦) في رواية تمنو أى تذلل وتنخفض ، وتعشو : تقصد . يقال عشا النار وإلى النار .

وأما ليلا فقصدما راجياً هدى أو قرى . قال الأعشى :

مضى تأتته تعشو إلى ضوء نواره تجد خير نار عندها خير موقد

(٧) الإملاك : الزواج .

(٨) الرنا : النظر المستديم .

ملتبس الوزارة

أفصح الشاعر لأبي الوليد في القصيدة السابقة عن رجائه فيه، إذ قال له «قلننى الرأى الجميل» ووقف ببابه ينتظر تحقيق ملتسه ۞ ولم يكن يلتبس مالا أو جائزة، إنما كان يلتبس أن يلتقى إليه بمقائيد دولته، فيصبح وزيره ومنشأه وأبيه وحكمه ۞ وقد عينه للنظر في شئون أهل النعمة ولكن ذلك كان دون مبتغاه وأمله ۞ فعاد إليه يستريحه ويقول :

أجل إن لى حيث أحيأوها الأسد^(١) مهأة حمتها في مرآتها أسد
يمانئة تذنو وينأى مزارها فسيان منها فى الهوى القرب والبعد
إذا نحن زرناها تمرّد مارد عز- فلم نظفر به- «الأبلى الفرد»^(٢)
تحول رماح الخط^(٣) دون اعتيادها وخيل تمطى نحو غاياتها جرد
الحى القاح^(٥) تأق الضم منهم جحاحجة^(٦) شيب وصيابة^(٧) مرّد
ستيلفها عنا الشمال^(٨) تحية نوافح أنفاس الجنوب لها رد
فما نسى الإلف الذى كان بيننا لطول تنائنا ولا ضيع العهد
لئن قيل: «فى الجدّ النجاح لطالب» لقل غناه الجدّ ما لم يكن جدّ^(٩)
هو الدهر^(٩) هما أحسن الفعل مرّة فمن خطا لكن إساءته عمد

(١) الأسد : قبيلة يمنية وهى الأزدي .

(٢) الأبلق الفرد : حصن للسمويل اشتهر بمنته .

(٣) الخط : ساحل البحرين ، وإليه تنسب الرياح الخطية .

(٤) اعتيادها : زيارتها .

(٥) الحى القاح : الذين لا يدينون لغيرهم من الملوك .

(٦) الجحاحجة جمع جحاجح : البادة

(٧) صياغة القوم : خيارهم .

(٨) الشمال والجنوب : ربحان .

(٩) الجد بكسر الحيم : الاجتهاد، وبالفتح : الحظ .

حِذَارَكَ أَنْ تَفْتَرَّ مِنْهُ بِجَانِبٍ
 وَلَوْلَا السَّرَاةُ الصَّيْدُ مِنْ آلِ جَهْوَرٍ
 مُلُوكٌ لِبِسْنَا الدَّهْرَ فِي جَنَابِهِمْ
 بِحَيْثُ مُقِيلٌ^(٣) الْأَمِنْ ضَافٍ^(٤) ظِلَالُهُ
 هُمْ النَّفَرُ الْبَيْضُ الَّذِينَ وَجُوهُهُمْ
 كَرَامٌ يَمُدُّ الرَّاعِبُونَ أَكْفَهُمْ
 فَلَا يُنْتَعِ مِنْهُمْ هَالِكٌ ، فَهَوَّ خَالِدٌ
 أَلَيْسَ أَبُو الْحَزْمِ الَّذِي غَبَّ سَقِيمُهُ
 أَغْرَأَ تَمَهَّدْنَا بِهِ الْخَفَضُ^(٦) بَعْدَ مَا
 لَشَمَّرَ حَتَّى انْجَابَ عَارِضُ فِتْنَةٍ^(٨)
 هُوَ الْأَثَرُ الْحَمُودُ إِنْ عَادَ ذِكْرُهُ
 تَوَلَّى فَلَوْلَا أَنْ تَلَاهُ مُحَمَّدٌ
 مَلِكٌ بِسُوسُ الْمَلِكِ مِنْهُ مُقْلَدٌ
 سَجِيَّتُهُ الْحَسَنَى وَشِيَمَتُهُ الرِّضَا
 فَنِي كُلِّ وَادٍ مِنْ نَوَائِبِهِ « سَعْدٌ »^(١)
 لِأَعُوزَ مِنْ يُعْدِي عَلَيْهِ مَتَى يَعْدُو
 رَقِيقَ الْخَوَاشِيِ مِثْلَمَا فُوفَ^(٢) الْبُرْدُ
 وَفِي سَهْلِ الْقَيْشِ الْعُدُوبَةُ وَالْبُرْدُ
 تَرُوقُ فَتَسْتَشْفِي بِهَا الْأَعْيُنُ الرُّمْدُ
 إِلَى أَنْحَرِ مِنْهُمْ لَهَا بِاللَّهْمَا^(٥) مَدُّ
 بِأَثَارِهِ إِنْ الثَّنَاءُ هُوَ الْخُلْدُ
 تَبَصَّرَ غَاوِينَا فَبَانَ لَهُ الرُّشْدُ
 أَقْضَى^(٧) عَلَيْنَا مَضْجَعٌ وَنَبَأٌ مَهْدٌ
 تَأَلَّقَ مِنْهَا الْبَرَقُ وَاصْطَخَبَ الرَّعْدُ
 تَطَلَّعَتِ الْعَلِيلَةُ وَاسْتَشْرَفَ الْمَجْدُ
 لِأَوْطَأَ خَدَّ الْحَرِّ أَخْمَصَهُ الْقَبْدُ
 رَوَى عَنْ أَبِيهِ فِيهِ مَا سَنَّهُ الْجَدُّ^(٩)
 وَسِيرَتُهُ الْمُنَى وَمَذْهَبُهُ الْقَصْدُ

(١) يشير إلى مثل يضرب في الشر وهو: « بكل واد سعد ».

(٢) فوف : رقيق . والبرد : الثوب

(٣) مقيل : مكان القيلولة وهو هنا بمعنى منزل .

(٤) ضاف : سابع .

(٥) باللهما جمع لهوة : العطايا .

(٦) خفض العيش : يسره ودعته .

(٧) أقض : خشن .

(٨) يشير إلى قيام أبي الحزم بثئون قرطبة بعد الفتنة الطويلة آخر عصر بني أمية هناك .

(٩) يتصنع في هذا البيت لما هو معروف عند أهل الحديث من الرواية وسلسلة السند .

تَرْجَحُ فِي أَثْنَائِهَا الْحَسْبُ الْعِدَّةُ^(١)
 عَلَيْهِمْ ۖ بِهِ تُثَقُّ الْخَنَاصِرُ إِنْ عُدُّوا
 إِذَا ذِكْرَتْ أَخْلَاقُهُ خَجِلَ الْوَرْدُ
 يَلْذُّ لَمْ كَلَّمَاءٍ شَيْبَ بِهِ الشَّهْدُ
 عَلَا قَدْرُهُ عَنْ أَنْ يَلِجَ بِهِ حَقْدُ
 كَمَا لَانَ مَنُ السَّيْفِ وَأَخْشَوْشَ الْخَدُّ
 وَبَاعٌ - إِلَى مَا يَحْرِزُ الْفَخْرُ - مُتَدُّ
 فَلَهُ مَا يَخْفَى وَلِلَّهِ مَا يَبْدُو
 وَبِاللَّهِ مُعْتَدُّ ، وَفِي اللَّهِ مُسْتَعَدُّ
 نَحَتْ غَرَضَ الْأَجْرِ الْجَزِيلَ فَلَمْ تَعُدُّ
 حَمَى الدِّينِ مِنْ أَنْ يُسْتَبَاحَ لَهُ حَدُّ^(٢)
 يَكَادُ يُؤَدِّي شُكْرَهَا الْحَجَرُ الصَّلْدُ
 يُقْصَرُ عَنْ أَذَى مَعَايِهَا الْقَدُّ
 عَزِيزٌ ، فَصَنَعَ اللَّهُ مِنْ حَوْلِهِ جُنْدُ
 لَآلِيهِ نَثْرٌ ، وَالتَّرَى عَنَبٌ وَرَدُّ
 وَفِي تَفَاحَاتِ الْمِسْكِ مِنْ طَيْبِهَا وَقْدُ
 بِأَوْطَارِ نَفْسٍ مِنْكَ لَمْ تَقْضِهَا بَعْدُ

مُهَامٌ إِذَا زَانَ النَّدَى بِمَحَبَّةٍ
 زَعِيمٌ لِأَبْنَاءِ السِّيَادَةِ بَارِعٌ
 بِمِيدُ مَنَالِ الْحَالِ دَانِي جَنَى النَّدَى
 مُمِرٌّ^(٣) لِمَنْ عَادَاهُ إِذْ أَوْلِيَاؤُهُ
 إِذَا اعْتَرَفَ الْجَانِي عَفَا عَفْوٌ قَادِرٌ
 لَهُ عَزْمَةٌ مَطْوِيَّةٌ فِي سَكِينَةٍ
 ذِرَاعٌ - لِمَا يَأْتِي بِهِ الدَّهْرُ - وَاسِعٌ
 هُوَ الْمَلِكُ الشَّفُوعُ بِالنُّسْكَ^(٤) مُلْكُهُ
 إِلَى اللَّهِ أَوَّابٌ ، وَلِلَّهِ خَائِفٌ
 لَقَدْ أَوْسَعَ الْإِسْلَامَ بِالْأَمْسِ حِسْبَةً
 أَبَاحَ حَمَى الْخَمْرِ الْخَبِيثَةِ ، حَانِطًا
 فَطَوَّقَ بِاسْتِنْصَالِهَا الْبَصَرَ مِثْنَةً
 مَظْنَنَةً آثَامٍ وَأُمٌّ كِبَائِرٍ
 غَنِيٌّ ۖ فَحَسُنُ الظَّنُّ بِاللَّهِ مَا لَهُ
 مَسَاعٍ أَجَدَّتْ زِينَةَ الْأَرْضِ ، فَالْحَمْدُ
 لَدَى زَهْرَاتِ الرُّوضِ عَنْهَا بِشَارَةٌ
 فَذَيْتُكَ إِنِّي قَاتِلٌ فَمَرَّضُ

(١) العد : الكثير .

(٢) مر : من الماراة .

(٣) بدأ يمدحه بالتقوى .

(٤) يشير هنا إلى أمر ابن جهور بكسر دفتان الحمر ، والحد : مفرد الحدود وهي ضروب
 التأديب والعقاب التي أمر الشارع بها .

مُنَى كَالشَّجَا^(١) دُونَ اللَّهَاءِ تَعَرَّضَتْ
أَمِثْلِي غَفْلٌ خَامِلٌ الذِّكْرُ ضَائِعٌ
أَنَا السِّيفُ لَا يَنْبُوعُ الْهَزِّ غَرَبُهُ^(٢)
بَدَأَتْ بِنُعْمَى غَضَّةٍ^(٣) إِنْ تَوَالَهَا
لِعَمْرِكَ مَا لِلْمَالِ أَسْمَى فَإِنَّمَا
وَلَكِنْ لِحَالٍ^(٤) إِنْ لَبَسْتُ جَاهِلًا
فَلَمْ يَكُ الْمَصْدُورُ مِنْ نَفْسِهَا بُدْ
ضِيَاعُ الْحَسَامِ الْعَضْبِ^(٥) أَصْدَأُ الْغِمْدِ
إِذَا مَا نَبَا السِّيفِ الَّذِي تَطْبَعُ^(٦) الْهِنْدُ
فَحَسْنُ اللَّالِي أَنْ يُوَالِيَهَا سَرْدُ^(٧)
يَرَى الْمَالُ أَسْنَى حَفْظُهُ الطَّبِيعُ الْوَعْدُ
كَتَوْنُكَ نَوْبَ النُّصْحِ أَعْلَامُهُ الْحَمْدُ

شكر

وَأَنَالَ أَبُو الْوَلِيدِ الشَّاعِرُ أَمْنِيَّتَهُ ، وَلِي مَلْتَمَسُهُ ، فَجَعَلَهُ وَزِيرَهُ ، وَأَسْلَمَهُ زِمَامَ دَوْلَتِهِ ، فَكَادَ
يَطِيرُ فَرَحًا ، وَفِي غَمْرَةِ هَذَا الْفَرَحِ ذَهَبَ يَقُولُ مِنْ قَصِيدَةٍ فِيهِ :

يَا بَنِي جَهْوَرِ الدُّنْيَا بِكُمْ
إِنَّمَا دَوْلَتُكُمْ وَاسِطَةٌ^(١)
نَحْنُ مِنْ نِعْمَاتِكُمْ فِي زَهْرَةٍ
لِي ذِكْرٌ بِالَّذِي أَسْدَيْتُهُ
فَقَبِلْتُ الْيَدَ^(٢) مِنْ بَطْنِ يَدٍ
كَلْنَا بُلْغَ مَا أَمَلَهُ
حَلَيْتُ أَيَّامَهَا بَعْدَ الْعَطَلِ^(٣)
أَهْدَتْ الْحُسْنَ إِلَى عِقْدِ الدَّوَلِ
جَدَّدَتْ عَهْدَ الرِّبْعِ الْمُقْتَبِلِ
نَابَهُ ، وَدَّ حُسُودٌ لَوْ خَمَلِ
ظَهَرُهَا - الدَّهْرُ - مَحَلٌّ لِلْقَبْلِ
فَابْلُغْ الْغَايَةَ مِنْ كُلِّ أَمَلِ

(١) الشَّجَا : مَا يَتَرَفَّضُ فِي الْهَلَاةِ أَوْ الْحُلُقِ .

(٢) الْمَقْبُوبُ : الْقَاطِعُ .

(٣) الْفَرَبُ : الْخَدُّ .

(٤) تَطْبَعُ : تَهْتَنِعُ .

(٥) غَضَّةٌ : نَاصِرَةٌ .

(٦) سَرْدٌ : تَتَابَعٌ .

(٧) يَشِيرُ إِلَى الْوِزَارَةِ .

(٨) الْعَطَلُ : ضِدُّ الزَّيْنَةِ .

(٩) وَاسِطَةُ الْعَقْدِ : أَمْنٌ جَوْهَرَةٌ فِيهِ .

(١٠) الْيَدُ : النِّعْمَةُ .

تهنئة

فارق الشاعر قرطبة وحبه اليأس فيها إلى إشبيلية ، فنزل بساحة المتنفس ملكها « فقربه منه » بل جعله وزيره وأغلق عليه من رضاء وإحسانه ما جعله يلهج بالشكر والثناء عليه « بل بالهبة والإخلاص له » فقد رفعه إلى مكان على لا تتناول إليه الأعناق . ووفاء بهذا الصنيع كان ابن زيدون يديج فيه مدائحه ، ويذمها في المناسبات المختلفة ، حين يتنصر على أعدائه وكان كثير الحروب مظفراً « وحين يقبل العيد وتم مسراته . وهذه إحدى مدائحه هتته فيها بعيد الأضحي ، وقد بلغ الغاية فيها من حيث السبك والتجويد ، يقول :

أما في نَسَمِ الرِّيحِ عَرَفُ^(١) مُعَرَّفُ
لنا: هل لذات الوقف^(٢) بالجزع مَوْقِفُ
فتنفضي أوطارَ المَيِّ من زيارةٍ
لنا كَلَفُ^(٣) منها بما تَكَلَّفُ
ضمانٌ علينا أن تُزَارَ ودونها
رِفاقُ الطَّبَا^(٤) والسَّهْرَى^(٥) المُنْقَفُ^(٥)
وقومٌ عِدَى يُبْدُونَ^(٦) عن صفحاتهم
وأزهرها^(٧) من ظِلَّةِ الحَقْدِ أَكَلَفُ^(٨)
غَيَارَى يَعْدُونَ الغرامَ جَرِيرَةً
بها والهوى ظُلماً يَغِيظُ ويؤسِفُ
يودُّون لو يَثْنِي الوعيدُ زَماعنا^(٩)
وفي السَّيراءِ^(١٠) الرِّقْمُ وَسَطَ قباهم
بعيدُ مناطِ القُرطِ أَحوراً وأُطَفُ^(١١)

(١) العرف : الشلى والرائحة الطيبة .

(٢) الوقف : سوار من عاج ، والجزع « منعطف الوادي .

(٣) كلف : ولع .

(٤) الطبا : جمع ظبة وهي حد السيف .

(٥) السهري : الريح « والمنقف : المقوم .

(٦) يبذون عن صفحاتهم : كناية عن المدح .

(٧) أزهر : مشرق .

(٨) أكلف : أسود .

(٩) الزماع : العزم على الزيارة .

(١٠) السراء : ثوب مخطط « والرقم : المرقوم أي الملم .

(١١) مناط القُرط : معلقه ، وبعبه كناية عن طول العنق « وأوطف : طویل شعر أهداب العين .

وليلةً وافتننا الكئيبَ لموعِدِ
 تهكّدى أناةً انخطوِ مرْتاعةَ الحشَا
 فما الشمسُ رَقَّ القِيمُ دونَ إِيّاتها^(٣)
 فدبُّكِ ! أنَّى زُرْتِ نورُكِ فأضحِ
 لجَاجٍ تَمَادَى الحُبُّ في المَعشَرِ العَدِي
 كفانا من الوصلِ التَّحِيَّةُ خُلَّةُ
 خليلي مهلاً لا تلوما فإنني
 وأعنفُ ما يَلْقَى الحُبُّ لِحاجةٍ
 وإني لَيْسَتْهُوَ بِنِي البرقِ صَبْوَةٌ
 وما وَلَعِي بِالرَّاحِ إِلَّا تَوَهُّمٌ
 ويُذْكرني العِقْدُ المَرِنُ جُمانه^(٩)
 وما قَبْلَ مَنْ أَهْوَى طَوَى البَذَرِ هَوْدَجُ
 سَرَى الأَيْمِ^(١) لم يُعْلَمْ لَمَسْرَاهُ مَزْحَفُ
 كما رِيحَ يَعْفُورٍ^(٢) الفَلَا المُنْشَوِّفُ
 سوى ما أَرى ذاكَ الجَبِينُ المُنْصَفُ^(٤)
 وعَطْرُكِ نَمَامٌ وَحَلْيُكِ مَرْجِفُ
 وأمُّ الهوى الأفقُ الَّذِي فِيهِ تُشْنَفُ^(٥)
 فيوميءُ طَرْفٌ أَوْ بَنَانٌ مُطَرْفُ^(٦)
 فَوَادِي أَلِفِ البَثِّ والعِصَمِ مُدْنَفُ^(٧)
 على نَفْسِهِ فِي الحُبِّ حِينَ يُعْنَفُ
 إِلَى بَرَقٍ تَغْرِ إِنْ بَدَا كَادٌ يَخْطَفُ
 لظَلَمٍ^(٨) بِهِ كَالرَّاحِ لَوْ يُتَرَشَّفُ
 مِرْنَاتُ وَرَقٍ^(١٠) فِي ذُرَى الأَبْكَ تَهْتَفُ
 وَلَا صَانِدِيْمَ^(١١) القَفْرِ خِذْرٌ مُسَجَّفُ^(١٢)

(١) الأيم : الحية وذكر الأئيم .

(٢) يعفور : ظلي .

(٣) إياة الشمس : حشها وضوئها .

(٤) المنصف : الذي عليه النصف وهو الخمار .

(٥) تشنف : نيفض ، وأم : قصد .

(٦) مطرف : مصبوغ بالخناء .

(٧) مدنف : مريض من الوجع والجوى .

(٨) الظلم : الرقيق وماء الأسنان .

(٩) الجمان : حب التلؤلؤ .

(١٠) الورق : جمع ورقاء وهي الحمامة .

(١١) ديم : ظلي .

(١٢) مسجف : عليه ستور .

ولا قبل عبادِ حوى البحر مجلسٌ
 همامٌ يزِينُ الدهرَ منه وأهله
 يَتِيهٌ بمرقاهُ سريرٌ ومنبرٌ
 رويتهُ في الحادثِ الإِدَّ (٢) لحظةً
 يَذِلُّ لهُ الجِيارُ خيفةً بأسيه
 أغرُّ متى تَدْرُسُ دواوينَ مجدهِ
 إذا نحنُ قرظناهُ قصرَ مُطنبٍ
 وأروعُ لا الباغى أذاهُ مُبَلِّغُ
 ممرُّ (٣) القوى لا يَمَلُّ الخطبُ صدرهُ
 له ظِلٌّ نَفَى يَذْكُرُ الهيمُ (٧) عندهُ
 جسيمٌ لعاصيه يُشَبُّ وقودهُ
 محاسنُ، غَرَبُ (٩) الذمُّ عنها مُقَلِّلُ

ولا حَمَلَ الطَّودَ العَظَمَ رَفَرَفُ (١)
 مَلِكٌ فقيهٌ كاتبٌ مُتَفَلِّسٌ
 وَيَحْمَدُ مَسْعَاهُ حُسامٌ ومُصَحَّفُ
 وتوقيمه الجالى دُجَى الخطبِ أَحْرَفُ (٣)
 ويعنُو إليه الأبلجُ المتَغَطْرِفُ (٤)
 يَرُقْنَا غريبٌ مُجَمَلٌ أو مُصَنَّفُ (٥)
 ولم يتجاوز غايةَ القصدِ مُسْرِفُ
 مُناهُ ولا الرّاجى نَدَاهُ مُسَوِّفُ
 وليس لأمرٍ فانتِ يَتَلَهَّفُ
 ظلالَ الصَّبَا بل ذاكُ أُنْدَى وأورَفُ
 وجَنَّةُ عَدْنٍ للطِيعينِ تَرْلَفُ (٨)
 كَهَامُ (١٠)، وشَمْلُ الجَدِّ فيها مؤَلَّفُ

(١) الرفرف هنا : العرش ، والطود : الجبل العظيم .

(٢) الإِد : العظيم أو الفظيع .

(٣) يقول إن توقيماته موجزة ، يريد أنها بليغة

(٤) يعنُو : يخضع ، والأبلج المتغَطْرِف : السيد الشريف .

(٥) تصنع هنا لذكر الغريب المصنف ، وهو كتاب لأبي عبيد القاسم بن سلام .

(٦) ممر القوى : أصله شديد القتال ، فهو وصف من أوصاف الجبل ، ويريد به أنه مستحكم

القوى .

(٧) الهِم : الشيخ الكبير .

(٨) تَرْلَف : تقرب .

(٩) غَرَب الذم : حده .

(١٠) كهام : كليل .

تَنَاهَتْ فَمَعْدُ الْمَجْدُ مِنْهَا مُفَصَّلٌ^(١) سَنَاءٌ وَبُرْدُ الْفَخْرِ فِيهَا مُفَوِّفٌ^(٢)
 طَلَاةٌ وَجَهٌ فِي مَضَاءِ كَتَلٍ مَا يَرُوقُ فِرْنَدُ^(٣) السَّيْفِ وَالْحَدُّ مُرْهَفٌ
 عَلَى السَّيْفِ مِنْ تِلْكَ الشَّهَامَةِ مَيِّسٌ وَفِي الرُّوْضِ مِنْ تِلْكَ الطَّلَاقَةِ زُخْرُفٌ
 سَجَايَا لِمَنْ وَالَاهُ كَالْأَرَى^(٤) يُجَحِّنِي تَعُودُ لِمَنْ عَادَاهُ كَالشَّرَى^(٥) يُنْقَفُ
 فَقُلْ لِلْمُلُوكِ الْحَاسِدِيهِ مَتَى أَدْعَى سُبَاقَ الْعَتِيقِ^(٦) الْفَائِتِ الشَّأُوْ مُقْرِفٌ^(٧)
 أَلَيْسَ بَنُو عَمَّادِ الْقِبْلَةِ الَّتِي عَلَيْهَا لَأَمَالُ الْبَرِيَّةِ مَمْكُفٌ^(٨)
 مَلُوكٌ يَرَى أَحْيَاؤَهُمْ فِخْرَ دَهْرِهِمْ وَيَخْلَفُ مَوْتَاهُمْ ثَنَاءً مُخْلَفٌ
 بِهِمْ بَاهَتْ الْأَرْضُ السَّمَاءُ فَأَوْجُهُ شَمُوسٌ وَأَيُّدٍ مِنْ حَيَا^(٩) الْمَزْنِ أَوْكُفٌ^(١٠)
 أَشَارَحَ مَعْنَى الْمَجْدِ وَهُوَ مَعْمَسٌ^(١١) وَبُحْزَلُ حَظِّ الْحَمْدِ وَهُوَ مُسْتَفْسَفٌ^(١٢)
 لَقَعْرُ الْعِدَى الْمُسْتَدْرِجِيكِ بَزَعْمِهِمْ إِلَى غِرَّةٍ^(١٣) كَادَتْ لَهَا الشَّمْسُ تُنْكَسَفُ
 لَكَالُوكِ صَاعَ الْغَدْرِ لَوْثُ سَجِيَةٍ وَكِيلَ لَهْمِ صَاعِ الْجَزَاءِ الْمُطْفَفِ^(١٤)

(١) المفصل : من الفاصلة وهي الخُرزة تفصل بين الحزبتين في المقد .

(٢) مفوف : رقيق مزدان .

(٣) فرند السيف : جوهرة ولعانه .

(٤) الأرى : العسل .

(٥) الشرى : الحنظل ، وينقف : يشق لأخذ ما في داخله .

(٦) العتيق : النجيب ، والشأو : الغاية ، والفائت الشأو : السابق .

(٧) مقرف : هجين غير أصيل .

(٨) ممكف : مكوف .

(٩) حيا : غيث .

(١٠) أوكف : أغزر .

(١١) معمس : مبهم ملتبس .

(١٢) مستفسف : هابط ونازل .

(١٣) غرة : غفلة ، وقد بدأ يتكلم عن حروب المعتضد وانتصاراته ، ويظهر من القصيدة أن

العيد ألم بهم بعد حرب وظفر بالأعداء .

(١٤) المطفف هنا : الكامل التام .

أَظَنَّ الْأَعَادَى أَنَّ حَزْمَكَ نَأْمٌ
تَحَمَّلْتَ عِبَاءَ الدَّاهِرِ عَنْهُمْ وَكُلَّهُمْ
فَإِنْ يَكْفُرُوا التَّعْمَى فَتِلْكَ دِيَارُهُمْ
وَبُشْرَاكَ عِيدٌ بِالسَّرُورِ مُظَلَّلٌ
بَشِيرٌ بِأَعْيَادِ تَوَافِيكَ بَعْدَهُ
كَرِيمٌ يَمُدُّ الْحَدَّ أَنْفَسَ قُنْيَةٍ (٣)
غَدَا بِخَيْمِيسٍ (٤) يُقَسِّمُ الْغَنِيمَ إِنَّهُ
هُوَ الْغَنِيمُ مِنْ زُرْقِ الْأَسِنَّةِ بَرَقَهُ
وَلَمَّا قَضَيْنَا مَا عَنَانَا أَدَاؤُهُ (٦)
قَرْنًا بِحَمْدِ اللَّهِ حَمْدَكَ إِنَّهُ
وَعُدْنَا إِلَى الْقَصْرِ الَّذِي هُوَ كَعْبَةٌ
فَإِذْ نَحْنُ طَالِعَانَا وَالْأَفْقُ لَا يَسُ
رَأْيُنَاكَ فِي أَعْلَى الْمُصَلَّى كَأَنَّمَا
وَلَمَّْا حَضَرْنَا الْإِذْنَ وَالْدَّاهِرُ خَادِمٌ

(١) الفسل : الفقه الرذلى .

(٢) متكفف : مشمول .

(٣) قنية : مكسب .

(٤) خيميس : جيش .

(٥) مكفهرًا : مسودًا .

(٦) يريد أداء الصلاة في العيد .

(٧) ملحف : ملح .

(٨) مطرف هنا : شاخص ذهولا ، وفي رواية مطوف بتشديد الواو المكسورة .

(٩) المجاجعة : النبار في الحرب .

وَصَلْنَا فَقَبَلْنَا النَّدَى مِنْكَ فِي يَدٍ لَقَدْ جُدْتَ حَتَّى مَا بِنَفْسٍ خِصَاصَةً^(١)
 بِهَا يُتَلَفُ الْمَالُ الْجَسِيمُ وَيُخَافُ وَلَوْلَاكَ لَمْ يَسْهَلْ مِنَ الدَّهْرِ جَانِبُ
 وَأَمَنْتَ حَتَّى مَا بَقَلْبٍ تَخَوْفُ لَكَ الْخَيْرُ أُنَى لِي بِشُكْرِكَ نَهْضَةٌ^(٢)
 وَلَا ذِلَّةٌ مُتَقَادٌ وَلَا لَانٌ مِمْطَفٌ^(٣) أَعَدْتَ بِهِمْ^(٤) الْحَالُ مِنْ غُرَّةِ
 وَكَيْفَ أَوْدَى فَرَضَ مَا أَنْتَ مُسْلَفٌ وَبَوَّأْتَهُ دُنْيَاكَ دَارَ مُقَابَةِ
 يَقَابِلُهَا طَرَفُ الْجَمُوحِ فَيُطْرَفُ^(٥) وَكَمْ نِعْمَةٍ أَلَيْسَتْهَا سُنْدُوسِيَّةُ
 بِحَيْثُ دَنَا ظِلٌّ وَذُلٌّ مَقْطَفٌ مَوَاهِبُ فَيَاضُ الْيَدَيْنِ ، كَأَنَّمَا
 أَسْرَبُهَا^(٦) فِي كُلِّ حِينٍ وَأَلْحَفُ فَإِنْ أَكْ عَبْدًا قَدْ تَمَلَّكَ رِقَّةُ
 مِنَ الْعُزْنِ تُمْرَى^(٧) أَوْ مِنَ الْبَحْرِ تُفْرَفُ فَأَرْفَعُ أَحْوَالِي وَأُسْتَى وَأَشْرَفُ

تَحْمِيَّة

نظم الشاعر هذه القصيدة يحكي بها الممتضد حين انتصر ابنه إسماعيل على ابن الأفلح صاحب بطليوس ، وقتل ابن أحد الأمراء الذين كانوا يؤازرونه ، وهو العز بن إسحق بن عبد الله ، يقول :

لَيْسَ الْهَدَى إِنْجَاحُ سَعْيِكَ فِي الْعِدَى وَأَنْ رَاحَ صُنْعُ اللَّهِ نَحْوَكَ وَاعْتَدَى^(٨)
 وَبُشْرَاكَ دُنْيَا غَضَّةٍ الْعَهْدِ طَلَقَةُ كَمَا ابْتَسَمَ النُّوَارُ عَنْ أَدْمَعِ النَّدَى

(١) خِصَاصَةٌ : فقر .

(٢) الْمِمْطَفُ هَذَا : السيف .

(٣) نَهْضَةٌ : قنطرة .

(٤) بِهِمْ : أسود ، والغرة : بياض الجبهة .

(٥) يَطْرَفُ : يريد كأنما أصاب طرفه عود ، فهو عملى ذاهل .

(٦) أَسْرَبُهَا : أَلْبَسَهَا .

(٧) تُمْرَى : تندر وتسكب .

(٨) رَاحَ صُنْعُ اللَّهِ وَاعْتَدَى نَحْوَهُ : كناية عن عنايته به ورعايته فيه . الغدو والرواح .

ودولة سَمِيدٍ لا انتهاء لحدّه
 دعوتَ ، فقال النصرُ لبنيك مائلاً
 وأُحْمِدتَ غَفَبِي الصَّبْرِ فِدْرَكَ المُنَى
 أعْبَادُ ! يا أَوْفَى الملوِكِ بِذِمَّةِ
 تَبَايَنْتَ فِي حَالِيكَ : غُرْتُ^(٢) تَوَاضَعَا
 وَلَمَّا اعْتَصَدْتَ اللهَ كُنْتَ مُوَهَّلاً
 وَكَمْ سَاعِدَ الأَعْدَاءِ أَوَّلَ مُطْمَعٍ
 فَلَا ظَافِرٌ إِلَّا إِلَى سَعْدِكَ اعْتَرَى
 ضَلَالاً لِمُفْتُونٍ^(٣) سَمَوْتَ بِجَالِهِ
 فَزَلَّ وَقَدْ أَمْطَيْتَهُ ثَبِجَ السَّمَاءِ^(٤)
 تَجَنَّى فَأَهْدَيْتَ النَّصِيحَةَ مَخْضَةً
 رَأَى أَنَّهُ أَضْحَى هِزْبَرًا^(٥) مُصَمِّمًا
 يُوَدُّ إِذَا مَا جَنَّهُ اللَّيْلُ أَنَّهُ
 يَحَازِرُ أَنْ يُلْقَى قَتِيلًا مُعَفَّرًا^(٦)

إِذَا قِيلَ فِيهِ قَدْ تَنَاهَى تَوْلَدًا
 وَلَمْ تَكُ كَالِدَاعِي يَجَاوِبُهُ الصَّدَى^(١)
 كَمَا بَلَغَ السَّارَى الصَّبَاحَ فَأُحْمِدَا
 وَأَرْعَاهُمُ عَهْدًا وَأَطْوَلَهُمْ يَدَا
 لَتُسْتَوْفَى الْعَلْيَا وَأُنْجِدْتَ سُودَدَا
 لَدَيْهِ لِأَن تَحْمَى وَتُكْفَى وَتُعْصَدَا
 رَأَوْكَ بِقُبَاهُ أَحَقُّ وَأَسْعَدَا
 وَلَا سَائِسٌ إِلَّا بِتَدْيِيرِكَ اقْتَدَى
 إِلَى أَنْ بَدَتْ بَيْنَ الْفِرَاقِدِ فَرَقَدَا
 وَضَلَّ وَقَدْ لَقِيْتَهُ قَبَسَ الْهُدَى
 وَلَجَّ فَوَالَيْتَ الْعِقَابَ مُرَدَّدَا
 فَلَمْ يَعُدُّ أَنْ أَمْسَى ظَلِيمًا^(٦) مُشَرَّدَا
 أَقَامَ عَلَيْهِ آخَرَ الدَّهْرِ سَرْمَدَا
 إِذَا الصُّبْحُ وَافَى أَوْ أُسِيرًا مُقَيَّدَا

(١) الصدى هنا : رجع الصوت .

(٢) غرت : من الغور وهو منخفض الوادى . فهي ضد أنجبت .

(٣) يريد ابن الأَفطس .

(٤) ثبج السماء : أعلاه ، والسماء : نجم .

(٥) هزبر : أسد .

(٦) الظليم : ولد النعام .

(٧) معفرا : من المفار ، وهو التراب .

لبئسَ الوفاءَ استنَّ^(١) في ابنِ عقيدِهِ^(٢)
 قرينٌ له أغواهُ حتى إذا هوى
 فأصبحَ يبكيهِ المصابُ بشكْلِهِ
 فداءً لإسماعيلَ كلُّ مُرْشِحٍ
 كرهتَ لسيفِ الملكِ ألفَةَ غِمْدِهِ
 ولم ترَ للشَّبلِ الإقامةَ في الشَّرى^(٤)
 مُهامٌ إذا حاربتَ فارْفَعَ لواءُهُ
 ولم ترَ سَيْفًا باتك^(٦) الحدَّ قبلَهُ
 لئن أنجزتَ منه الشَّاتِلُ آخرًا
 قررتَ به عَيْنًا ! فكم سادَ عِترَةُ
 وأعطيتُما فيما تريغانِهِ^(٧) الرِّضَا
 عشيةً لم يُصدِرْهُ من حيث أوردَا
 تبرأَ يعمدُ البراءةَ أرشَدَا
 بُكاءَ لبيدٍ^(٣) حينَ فارِقَ أرْبَدَا
 إذا جُشِمَ الأمرُ الجسيمَ تَبَلَّدَا
 وقلَّ غَناءُ السيفِ ما كان مُغَمِّدَا
 فجَدَّ افتراسًا حينَ أَصْحَرَ^(٥) لَعِيدَا
 فما زالَ منصورَ اللواءِ مُؤَيَّدَا
 تناولَ سَيْفًا دونَهُ فتقلَّدَا
 لقد قَدِّمَتْ منه الخَيلُ مَوْعِدَا
 وكم سارَ سُلطانًا وكم زانَ مَشْهَدَا
 وبُلَّغَما مما تُريدانه المَدَى

(١) استنَّ : اعتنق .

(٢) عقيدِهِ : حليفه وهو إسحق بن عبد الله أمير قرمونة .

(٣) اشهر لبيد الشاعر الجاهلي يبكائه على أخيه أربد وراثته له .

(٤) الشرى : الغيل أو الغابة .

(٥) أصحمر : برز .

(٦) باتك : قاطع .

(٧) تريغانه : تطلبانه .

٤ - نماذج الرثاء

تعزية

نظم ابن زيدون هذه القصيدة حينما توفي أبو الحزم وولى ابنه أبو الوليد من بعده سنة ٤٣٥ للهجرة وهو فيها يعزى عن الفقيه ، ويعدد مناقبه ، ويعرض لفضائل أبي الوليد ، ويلمح للصنيعة التي يريدها منه . ويظهر أنه كان يمجب بصياغة هذه القصيدة ، فرق أم أبي الوليد بأخرى على وزنها ورويها ، وكرر فيها كثيراً من أبياتها . ولما توفي المعتضد عزى المعتضد وهنأه بقصيدة على وزنها ورويها ، واستعان فيها هي الأخرى بالقصيدتين الأوليين . ولاحظ ذلك ابن بسام فتشمل بقول أبي العلاء :

رُبَّ لَحْدٍ قَدْ صَارَ لَحْدًا مَرَارًا ضاحِكٍ من تراحم الأضدادِ

وربما كان السبب الذي حدا بابن زيدون إلى ذلك أنه أعجب بهذه القصيدة التي نحن بصددنا تفقيد بالفاظها ومعانيها كلها حاول رثاء مهملًا ، وهي تجرى على هذه الصورة :

ألم ترَ أنَّ الشمسَ قد ضمَّها القبرُ وأنَّ قد كفانا فقدَّها القمَرُ البدرُ
وأنَّ الحياءَ ^(١) إنَّ كان أفلحَ صوبه ^(٢) فقد فاض للأمالِ في إثرِهِ البَحْرُ
إساءةُ دهرٍ أحسنَ الفعلَ بعدَها وذنبُ زمانٍ جاءَ يتبعُهُ العُذرُ
فلا تبهنَّ الكاشحون ^(٣) فما دجا لنا الليلُ إلا رينبًا طلَعَ الفجرُ
وإنَّ يكُ ولىَّ جهورٍ فحمدُ خليفته العَدْلُ الرضا وابنه البرُّ
فنى يجمعُ المجدَّ للفرقِ همُّه ويُنظَمُ في أخلاقهِ السُّودُودُ النثرُ
أهابتْ إليه بالقلوبِ محبةً هي السَّخَرُ للأهواءِ بل دونها السَّخَرُ
سرتْ حيث لا تسرى من الأنفسِ ألمى ودبتْ ديبًا ليس تحسِنهُ الخمرُ

(١) الحياء : المطر .

(٢) صوبه : انصبابه ودقته المطر .

(٣) الكاشحون : الأعداء .

لِسِنَا لَدِيهِ الْأَمْنُ تَنْدَى ظِلَالُهُ
وَعَادَتْ لَنَا عَادَاتُ دُنْيَا كَأَنَّهَا
مَلِيكَ لَهُ مِنَّا النَّصِيحَةُ وَالْهُوَى
فَقُلْ لِلْحَيَارَى : قَدْ بَدَأَ عَلَّمَ الْهُدَى
أَبَا الْحَزْمِ قَدْ ذَابَتْ عَلَيْكَ مِنَ الْأَمَى
دَعِ الدَّهْرَ يَفْجَعُ بِالذَّخَائِرِ أَهْلَهُ
تَهَوُّنُ الرِّزَايَا بَعْدُ ۖ وَهِيَ جَلِيلَةٌ
فَقَدْ نَاكَ فَقْدَانُ السَّحَابَةِ لَمْ يَزَلْ
مَسَاعِيكَ حَلَى لَيْلَى مُرْصَعٌ
فَلَا تَبْعَدَنَّ إِنْ الْمَنِيَّةُ غَايَةٌ
عِزَاءُ قَدَّتْكَ النَّفْسُ عَنْهُ فَإِنْ ثَوَى
وَمَا الرُّزْءُ فِي أَنْ يُوَدَّعَ التُّرْبُ هَالِكٌ
أَمَامَكَ مِنْ حِفْظِ الْإِلَهِ طَلِيعَةٌ
وَمَا بِكَ مِنْ فَقْرٍ إِلَى نَصْرِ نَاصِرٍ
لَكَ الْخَيْرُ إِنِّي وَاثِقٌ بِكَ شَاكِرٌ

وَزَهْرَةَ عَيْشٍ مِثْلًا أَيْنَعَ الزَّهْرُ
بِهَا وَسَنٌ أَوْ هَرْزٌ أَعْطَافَهَا سُكْرُ
وَمِنْهُ الْأَيْدَى الْبَيْضُ وَالنَّعْمُ الْخَضِرُ
وَالطَّامِعُ الْمَغْرُورُ : قَدْ قُضِيَ الْأَمْرُ
قُلُوبٌ مِنْهَا الصَّبْرُ لَوْ سَاعَدَ الصَّبْرُ
فَمَا لِنَفْسٍ مَذْطَوَاكُ الرَّدَى قَدْرُ
وَيُعْرِفُ مَذْفَارَقَتَنَا الْحَادِثُ النُّكْرُ
لَهَا أَثَرٌ يُثَبِّتِي بِهِ السَّهْلُ وَالْوَعْرُ^(١)
وَذَكَرْكَ فِي أَرْدَانٍ^(٢) أَيَامَهَا عِطْرُ
إِلَيْهَا التَّنَاهَى طَال أَوْ قَصُرَ الْعُمْرُ
فَبَانَكَ لَا الْوَانِي وَلَا الضَّرِيعُ^(٣) الْفَمْرُ
بَلِ الرُّزْءُ كُلُّ الرُّزْءِ أَنْ يَهْلِكَ الْأَجْرُ
وَحَوْلَكَ مِنْ آلَاتِهِ عَشْكَرٌ بَجَرٌ^(٤)
كَفَتَكَ مِنْ اللَّهِ الْكَلَاءَةُ^(٥) وَالنَّصْرُ
لِمَنْتَى^(٦) أَيَادِيكَ الَّتِي كَفَرُهَا الْكُفْرُ

(١) مأخوذة من قول الشاعر :

فَأَذْهَبَ كَمَا ذَهَبَتْ غَوَادِي مَرْزَقَةٍ أَثْنَى عَلَيْهَا السَّهْلُ وَالْأَوْعَارُ

(٢) أَرْدَانٌ : أَكَامٌ .

(٣) الضَّرِيعُ : الضَّعِيفُ ، وَالْفَمْرُ : مَنْ لَمْ يَجْرِبِ الْأُمُورَ .

(٤) الْبَجَرُ : الْكَثِيرُ .

(٥) الْكَلَاءَةُ : الرَّعَايَةُ .

(٦) مَنْتَى : مَضَاعِفُ .

تَحَامَى الْعِدَا ، لَمَّا اعْتَلَقْتُكَ ، جَانِبِي
يَلِينُ كَلَامٌ كَانَ يَخْشُنُ مِنْهُمْ
فَصَدَّقَ ظَنُونَا لِي وَفِيَّ فَإِنِّي
وَمَنْ يَكُ الدُّنْيَا وَالْوَفْرُ^(٣) سَعِيهِ
وَقَالَ الْمُنَاوِي : شَبَّ عَنْ طَوْقِهِ عَمْرُو^(١)
وَيَقْتَرُ نَحْوِي ذَلِكَ النَّظْرَ الشَّرَّ^(٢)
لَأَهْلُ الْيَدِ الْبَيْضَاءِ مِنْكَ وَلَا فَخْرُ
فَتَقْرِبُكَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالَكَ الْوَفْرُ

صبر جميل

ماتت أم المعتضد « فرثاها الشاعر بقصيدة طويلة تحدث فيها عن تقواها ومباعدتها للفقراء والبيداء
وأنها لم تمت إلا وهي قريرة العين بابنها وسلطانها على البلاد والعباد ، وفي أثناء ذلك كان يعزيه ويدعوه إلى
الصبر والرضا بالأمر الواقع » ومن قوله فيها :

أَصْبِنَا بِمَا لَوْ أَنَّ هَضْبَ مُتَالَعِ^(٤) أُصِيبَ بِهِ لَانْهَدَّ أَوْ لَتَضَعَضَعَ
مَنَارٌ مِنَ الْإِيمَانِ لَمْ يَعُدْ أَنْ هَوَى
وَشَمْسٌ هُدًى أَمْسَى لَهَا التَّرْبُ مَغْرِبًا
وَكَانَ لَهَا الْحَرَابُ فِي الْخِذْرِ مَطْلَعًا
لَتَبْكِ الْأَيَامَى^(٥) وَالْيَتَامَى فَقِيدَةً
هِيَ الْمَزْنُ أَحْيَا صَوْبُهُ نَمِ أَقْشَعًا^(٦)

(١) هذا مثل قديم « ومعناه واضح .

(٢) النظر الشرر : النظر الغاضب وما فيه إغراض .

(٣) الوفرة : المال .

(٤) متالع : جيل في نجد .

(٥) الأيامي : جمع أيم وهي من لا زوج لها .

(٦) أقشع صوب المزن : انكشف بعد صب المطر وهطوله .

مُسَبَّحَةً الْآثَاءَ ^(١) فَاتَتْهُ الضُّحَى
 تَبَيَّتْ مَعَ الْإِخْبَاتِ ^(٢) مُسْعَرَةَ الْحَشَا
 إِذَا مَا هِيَ اسْتَوَفَتْ مِنَ الْبَرِّ غَايَةً
 أَصْرَفَ ^(٣) الرَّدَى لَوَازِلِ السَّيْفِ مَضْرِبًا
 وَلَكِنْ وَطِئَتْ الْمَلَكَ مِنْ حَيْثُ لَا يَرَى
 لَعَمْرُؤُا الَّتِي وَدَّعَتْ أَمْسَ مُفَارِقًا
 تَمَنَّتْ وَفَاءً فِي حَيَاتِكَ بَعْدَ مَا
 فَوَّقِيهَا مَا لَمْ تَدَّعْ لَضَمِيرِهَا
 تَرُوحُ أَمِيرًا فِي الْبِلَادِ مُحْكَمًا
 عَزَاهُ ، فَذَلِكَ النَّفْسُ ، عَزَمَ مُسْلِمٌ
 مَتَى ظَنَنْتِ الْآيَامُ أَنْكَ جَارِعٌ
 وَمَا كُنْتَ أَهْلًا أَنْ يُصِيبَكَ حَادِثٌ
 فَلَوْلَاكَ لَمْ يَسْمَحْ مِنَ الدَّهْرِ جَانِبٌ
 ثَوَتْ فَتَوَى مَغْنَى التَّأْوُدِ بَلَقَمًا ^(٤)
 تَقِيَّةً مَنْ يَخْشَى إِلَى اللَّهِ مَرْجِعًا
 تَأْتَتْ لِأُخْرَى ، لَا تَرَى تِلْكَ مَقْتَمًا
 لَمَّا رُعْتَنَا أَوْ أَنْ فِي الْقَوْسِ مَنَزَعًا
 فَلَمْ يَسْتَطِعْ لِلْحَادِثِ الْحَتْمَ مَدْفَعًا
 لَقَدْ وَرَدَتْ حَوْضُ السَّعَادَةِ مَشْرَعًا ^(٥)
 حَشَدَتْ لَهَا الْأَمَالَ مَرَأًى وَمَسْمَعًا
 إِلَى غَايَةٍ مِنْ بَعْدِهِ مُتَطَلِّعًا
 وَتَعْدُو شَفِيمًا فِي الذُّنُوبِ مَشْفَعًا
 لِمَوْقِعِ أَمْرِ لَمْ يَزَلْ مُتَوَقِّعًا
 أَوْ اسْتَشْرَعَتْ فِي قَلِّ صَبْرِكَ مَطْمَعًا ؟
 فَتَصْبِحَ مِنْهُ مُقْصَدٌ ^(٦) الْقَلْبُ مُوجِعًا
 وَلَا اهْتَزَّ أَعْطَافًا وَلَا لَانَ أَخْذَعًا ^(٧)

(١) الْآثَاءُ : آثَاءُ اللَّيْلِ ، وَهِيَ سَاعَاتُهُ .

(٢) يَقُولُ فِي هَذَا الشَّرْطِ : إِنَّمَا ثَوَتْ أَيْ مَاتَتْ ، فَأَصْبَحَ مَغْنَى التَّأْوُدِ أَيْ مَنَزَلُهُ قَفْرًا . وَكُلُّ هَذَا كِنَايَةٌ عَنْ قُوَّتِهَا وَعِبَادَتِهَا .

(٣) الْإِخْبَاتُ : الْخُشُوعُ وَالتَّقْوَى .

(٤) سَرَفَ الرَّدَى : حَدَثَانُهُ وَفَاتَتْهُ ، وَالْمُنْزَعُ بِكَسْرِ الْمِيمِ : السَّهْمُ بَعِيدُ الْمَرَمِيِّ .

(٥) الْمَشْرَعُ : الْمَوْدُ الْمَطْرُوقُ .

(٦) مُقْصَدٌ : مُصَابٌ وَمُنْكَسَرٌ .

(٧) اهْتَزَّازَ الْعَطْفُ كِنَايَةٌ عَنِ السَّرُورِ وَالرِّضَا ، وَلَيْنَ الْأَخْذَعُ وَهُوَ عَرَقُ الْوَرِيدِ كِنَايَةٌ عَنِ

ولازلت ممنوعَ الحمى مُسَقِّفَ المعنى إذا كان شانيكَ المصابِ المفجماً
ودُمتَ مُلقًى أنجم السَّعدِ باقياً لدينٍ ودُنيا أنت فخرُها معاً

٥ - الرسالة الهزلية

أما بعد أيُّها المُصاب بعقله • المورطُ بجَهله ، البينُ سَقَطه ^(١) • الفاحشُ
غَلَطه • العائرُ في ذيلِ اغتراره ، الأعمى عن شمسِ نهاره ، الساقطُ سقوط
الذُّبابِ على الشرابِ • المتهافُ تهافُ الفراشِ في الشَّهابِ ^(٢) ، فإنَّ
العُجبَ ^(٣) أكْذَبُ • ومعرفةُ المرءِ نفسه أصوبُ . وإنك راسلتني مُستَهدياً
من صلتني ماصْفِرْتَ ^(٤) منه أيدي أمثالك ، متصدياً من خلُقِي ^(٥) لما قُرِعت ^(٦)
دونه أنوفُ أشكالك • مُرسِلاً خليلتك ^(٧) مُرتَادةً ، مستعملاً عشيقتك قَوادةً ،
كاذباً نفسَكَ أنك ستُنزل عنها إلى • وتخلُف بعدها على :

ولست بأوَّلِ ذِي هِمَّةٍ دَعَتْهُ لِمَا لَيْسَ بِالنَّائِلِ ^(٨)

(١) سقط القول : خطؤه .

(٢) الشهاب : الشعلة من النار .

(٣) العجب : ما يعجب الإنسان من نفسه ، ولذلك أخبر عنه بأنه أكذب أى أنه يدعى المرء
إلى أن يتخيل ما لا صحة له فيكذب نفسه .

(٤) صفرت : خلت .

(٥) خلقي : مودقي .

(٦) القرع : الضرب .

(٧) يريد بالخليفة الرسول الذى كان يرسل بها ابن عبدوس إلى ولادة .

(٨) البيت للمتنبي ، والنائل • ما ينال • ومعنى البيت : ليس هو أول من هم بما امتنع عليه

ورام ما لا سبيل إليه .

ولا شك أنها قَلَّتْكَ (١) إذ لم تَصِنْ بك . ومَلَّتْكَ إذ لم تَعْرِ عَلَيْكَ . فإنها أعذرت (٢) في السفارة لك . وما قَصَّرَتْ في النيابة عنك ، زاعمة أن المروءة لفظ أنت معناه ، والإنسانية اسم أنت جِسْمُهُ وهَيُولَاهُ (٣) ، قاطعة (٤) أنك انفردت بالجمال . واستأنزت بالكمال . واستغليت في مراتب الجلال ، واستوليت على محاسن الخلال . حتى خيَلْتَ أن يوسف عليه السلام حاسنك (٥) فغَضَضْتَ منه ، وأن امرأة (٦) العزيز رأتك فسَلَّتْ عنه . وأن قارون (٧) أصاب بعض ما كَنَزَتْ ، والنَّظْفُ (٨) عَثَرَ على فضل ما رَكَزَتْ (٩) . وكسرى (١٠) حَمَلَ غاشيتك (١١) ، وقيصِر (١٢) رَعَى ماشيتك . والإسكندر قَتَلَ داراً (١٣) في طاعتك . وأردشير (١٤) جاهد ملوك الطوائف لخروجهم عن جماعتك ، والضحاك استدعى مُسَالَمَتَكَ ، وجَذِيمة (١٥) الأبرش تَعْنَى منادمتك .

(١) قَلَّتْكَ : أبغضتك .

(٢) أعذرت : أتى بما صار به معنوياً أي أن صاحبه بلغت الجهد في السفارة ، وهي المشى في

الصلح .

(٣) هيولاه : مادته .

(٤) قاطعة : موقنة .

(٥) حاسنك : باراك في الحسن .

(٦) امرأة العزيز : معروفة في قصة يوسف وأنها شغفت به حباً .

(٧) قارون : من قوم موسى واشتهر بالكنوز والثروة الكثيرة .

(٨) النظف : رجل من تميم نهب أموالاً لكسرى في الجاهلية . فأنثرى .

(٩) ركز : من الركز وهو المال البغين .

(١٠) من ملوك الفرس .

(١١) الغاشية : غطاء السرج . أو المظلة .

(١٢) ملك الروم .

(١٣) ملك الفرس في عهد الإسكندر وقد قتله .

(١٤) أردشير من ملوك الفرس الأولين وشبهه الضحاك .

(١٥) من ملوك العرب في الجاهلية .

وشيرين^(١) قد نافست بوران فيك ، وبلقيس^(٢) غابرت الزباء عليك ،
 وأن مالك^(٣) بن نويرة إنما ردف لك ، وعروة^(٤) بن جعفر إنما رحل
 إليك ، وكليب^(٥) بن ربيعة إنما حنى المرعى بعزتك ، وجساس^(٦) إنما
 قتله بأنفتك ، ومهلهل^(٧) إنما طلب ثأره بهمتك ، والسوءل^(٨) إنما وفى
 عن عهدك ، والأحنف^(٩) إنما احتبى^(١٠) فى بُرذتك ، وحاتم^(١١) إنما جاد
 بوفرك^(١٢) ، ولقي الأضياف ببشرك ، وزيد^(١٣) بن مهلهل إنما ركب
 بفخذيك ، والسليك^(١٤) بن السلكة إنما عدا على رجلك ، وعامر^(١٥) بن
 مالك إنما لاعب الأسنه بيديك ، وقيس^(١٦) بن زهير إنما استعان بدهائك ،
 وإياس^(١٧) بن معاوية إنما استضاء بمصباح ذكائك ، وسحبان^(١٨) إنما تكلم

(١) شيرين : زوجه أبرويز ملك القرس وبوران ابنته .

(٢) بلقيس ملكة سبا ، والزباء ملكة تدمر .

(٣) مالك : من شجعان تميم فى الجاهلية والإسلام ، قتل فى حروب الردة ، والردافة أن
 يكون للشريف تابع يجلس وراءه أو عن يمينه .

(٤) عروة بالرحلة إلى الملوك ، ولذلك يسمى عروة الرجال .

(٥) سيد بكر وتغلب .

(٦) صهر كليب وقاتله .

(٧) مهلهل أخو كليب وصاحب ثأره ، وقد أثار بطلب هذا الثأر حرب البسوس المشهورة .

(٨) أشهر السوءل صاحب حصن الأبلق الفرد بالوفاء ، فغضب به المثل فيه .

(٩) سيد تميم البصرة فى الإسلام وكان يشتهر بجلمه .

(١٠) احتبى : اشتعل أو جلس القرفصاء .

(١١) الوفير : المال .

(١٢) هو زيد الخيل : من فرسان الجاهلية لحق الإسلام وأسلم .

(١٣) السليك : عداء مشهور فى الجاهلية .

(١٤) يلقب عامر بملاعب الأسنه وهو من شجعان العرب فى جاهليتهم .

(١٥) قيس : سيد عيس وداهيتها فى حروبها .

(١٦) قاضى البصرة فى أواخر العصر الأموى ، ويشتهر بذكائه .

(١٧) سحبان : من خلفاء العرب مات فى عصر مروية .

بلسانك . وعمر^(١) بن الأهتم إنما سحر ببيائك ، وأن الصلح^(٢) بين
بكرٍ وتغلب تمَّ برسالتك . والحالات^(٣) بين عبيس وذبيان أُسِنِدَتْ إلى
كفالتك ، وأن احتيال هريم^(٤) لعلقة وعامر حتى رَضِيا كان ذاك عن
إشارتك . وجوابه لعمر^(٥) وقد سأله عن أيهما كان يَنْفِرُ وقع عن إرادتك .
وأن الحجاج^(٦) تقلَّد ولاية العراق بِمَدِّكَ . وقُتَيْبَةُ^(٧) فتح ما وراء النهر
بسَعْدِكَ . والمهلب^(٨) أوهن شوكة الأزارقة^(٩) بِأَيْدِكَ ، وفرَّق^(١٠) ذات بَيْنهم
بكِدِّكَ . وأن هَرَمِس^(١١) أعطى بِلِينُوسَ^(١٢) ما أَخَذَ منك ، وأفلاطون
أورد على أرسططاليس^(١٣) ما نَقَلَ عنك . وبَطْلَيْمُوسُ^(١٤) سَوَّى الْأَصْطُرْلَابَ

(١) عمرو : من سادات تميم وخطبائها في الجاهلية والإسلام .

(٢) هو صلح حرب البسوس .

(٣) الحالات : الديات وكان قد احتملها هرم بن سنان مدوح زهير والهارث بن عوف

في قصة مشهورة .

(٤) هو هرم بن قطبة كان أحد من يحتكم إليهم العرب في الجاهلية لعقله ، واحتكم إليه
علقة وابن عمه عامر بن الطفيل ، وما جئنا من بني عامر بن صعصعة . فاحتال لهما حتى لا يحكم
الأحدهما على الآخر ، فتكون حرب بين عشرينهما .

(٥) هو عمر بن الخطاب . وقد سأله بعد إسلامه أيهما تنفر الآن لو احتكما إليك؟ فقال :
لو قلت الآن كلمة لنشتت الحرب بين الحيين ، وتنفر : تغلب في المناقرة .

(٦) والى العراق المشهور .

(٧) قتيبة : هو قتيبة بن مسلم بطل حروب الشرق في عهد الوليد بن عبد الملك ، وكان قد
ولاه على خراسان ، فأظهر بطولة نادرة في الحروب هناك .

(٨) المهلب : أشهر قواد الأمويين في حروب الخوارج .

(٩) الأزارقة : أحد فروع الخوارج وهم أتباع نافع بن الأزرق . والأيد : القوة .

(١٠) فرق ذات بينهم : كناية عن أنه دوشهم وأضعفهم .

(١١) هرمس : من أنبياء الصابئة .

(١٢) بليينوس : خليفة هرمس .

(١٣) أفلاطون أستاذ أرسططاليس ، وما فيلسوفان يونانيان مشهوران .

(١٤) بطليموس : فيلسوف يوناني اشتهر بالفلك والمنجمة والجغرافيا ، والأصطرلاب : آلة

لرصد النجوم .

بتدبيرك . وصَوَّرَ الكُرَّةَ على تقديرِكَ . وأَبْقَرَاطُ^(١) عَلِمَ الْعِلَلَ والأمراض
بلطفِ حِسِّكَ . وجالينوس^(٢) عرف طبائع الحشائش بدقة حَدْسِكَ . وكلاهما
قَدَّرَكَ في العلاج . وسألك عن المزاج . واستوصفكَ تركيبَ الأعضاء ،
واستشارك في الداء والدواء . وأنتَ نَهَجْتَ لأبَى مَعْشَرٍ^(٣) طريقَ القضاء ،
وأظهرتَ جابر^(٤) بن حَيَّانَ على سِرِّ الكيمياء . وأعطيتَ النِّظَامَ^(٥) أصلاً
أَدْرَكَ به الحقائق ، وجعلتَ لِلسَّكَنْدِيِّ^(٦) رَسْماً استخرج به الدقائق . وأن
صناعةَ الألحان اختراعُكَ . وتأليفَ الأوتار والأنوار توليدُكَ وابتداعُكَ . وأن
عبد^(٧) الحميد بن يحيى بارى أقلامك ، وسهل^(٨) بن هرون مُدَوِّنُ كلامك .
وعمر^(٩) بن بَجرِ مُسْتَمْلِكُكَ . ومالك^(١٠) بن أنس مُسْتَفْتِيكَ . وأنتَ الذي
أقام البراهين ، ووضع القوانين . وحدَّ الماهية^(١١) وَبَيَّنَّ الكيفيةَ والكميةَ .
وناظر في الجَوْهَرِ والعَرَضِ ، وَمَيَّزَ الصِّحَّةَ مِنَ المرضِ . وَفَكَ الْمُعَمَّى^(١٢) ،
وفَصَّلَ بين الاسمِ والمُسَمَّى ، وصَرَّفَ وقَسَّم . وعدَّلَ وقوَّم . وصَنَّفَ الأسماءَ

(١) من أطباء اليونان .

(٢) آخر الحكماء وخاتم أطباء اليونان .

(٣) أبو معشر : منجم عباسي مشهور ، والقضاء هنا : القدر ، وطريقاه : الخير والشر .

(٤) جابر : من أعلام العرب في الكيمياء . ويقال بل هو اسم منحول .

(٥) النِّظام : أستاذ الجاحظ ، وكان يشتهر بالذكاء والعمق في الفهم .

(٦) السكندى : أول فلاسفة العرب .

(٧) عبد الحميد : كاتب مروان بن محمد وهو أبلغ الكتاب المتقدمين ولذلك قيل بدئت

الرسائل بعبد الحميد .

(٨) سهل : بليغ عباسي مشهور .

(٩) هو الجاحظ . أفصح كتاب العرب غير مدافع .

(١٠) هو مالك صاحب المذهب المشهور الذي دانت به الأندلس وبلاد المغرب .

(١١) يريد أنه حد الحدود والتعريفات . وهو تهكم واضح .

(١٢) المعنى : المفلز من الفلز .

والأفعال ، وبوب الظرف والحال . وبنى وأعرب . ونفى وتمجّب ، ووصل وقطع ، وثنى وجمع . وأظهر وأضمر ، واستفهم وأخبر ، وأهمّل وقيد . وأرسل وأسند^(١) ، وبحث ونظر ، ونصف الأديان . ورجح بين مذهبي^(٢) ماني وغيلان ، وأشار بذنب الجعد^(٣) . وقتل بشار بن بُرد . وأنتك لو شئت خرقت العادات . وخالفت اليهودات ، فأحلت البحار عذبة . وأعدت السلام^(٤) رطبة . ونقلت غداً فصار أمسا ، وزدت في العناصر فكانت خمسا^(٥) ، وأنتك القول فيه : كل الصيّد في جوف^(٦) الفمرا . و :

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد^(٧)

والمعنى بقول أبي تمام :

فلو صوّرت نفسك لم ترّدها على ما فيك من كرم الطباع

والمراد بقول أبي الطيب :

ذكر الأنام لنا فكان قصيدة كنت البديع الفرد من أبياتها

فكدمت في غير مكدم^(٨) ، واستسمنت ذا ورم . ونفخت في غير

(١) إشارة إلى المسند في الحديث ، والمرسل : وهو ما لم يذكر فيه أول السند .

(٢) ماني : صاحب نحلة دينية عند الفرس . وكان ذلك قبل الإسلام . وهو يقول بأن هناك إلهين : إله النور وإله الظلام . وغيلان ، أول من تكلم في القدر بين المسلمين في العصر الأموي . وهو دمشقي . (٣) الجعد : مولى لبني الحكم . تكلم في القدر وغيره . وتجاوز الحدود ، فقتله خالد القسري في العراق أثناء ولايته هناك .

(٤) السلام : الحجارة الصلبة .

(٥) العناصر في رأى الفلاسفة أربعة : الماء والهواء والنار والتراب .

(٦) مثل يضرب في الشيء الذي يزيد غيره أو يفعله ، والقرأ : حمار الوحش .

(٧) هذا البيت لأبي نواس من قصيدة يملح بها الفضل بن يحيى وزير هرون الرشيد .

(٨) مثل يضرب لمن يطلب شيئاً يعجز عنه . والكدم : المض ، والمكدم : موضع المض .

ضَرَمَ^(١) ، ولم تجد لريح مَهْزًا ، ولا لشفرة مَحْزًا^(٢) ، بل رَضِيتَ من الغنيمة بالإياب^(٣) ، وتمنيت الرجوع بخنْى حُنَيْنٍ^(٤) . لأنى قلت : « لَقَدْ هَانَ مِنْ بَالَتْ عَلَيْهِ الثَّعَالِبُ^(٥) » ، وأنشدت :

على أنها الأيامُ قد صِرْنَ كُلُّهَا عجائبَ حتى ليس فيها عجائب^(٦)
ونُخِرَتْ^(٧) وبَسَرَتْ^(٨) ، وَعَبَسَتْ^(٩) وكَفَرَتْ . وأَبْدَأَتْ^(١٠)
وَأَعَدَّتْ ، وَأَبْرَقَتْ وَأَرْعَدَتْ^(١١) ، « وهَمَّتْ^(١٢) ولم أفعَلْ وكِدَتْ
وَلَيْتَنِي » ، ولولا أن للجوار ذِمَّةً . وللضيافة حُرْمَةً . لكان الجوابُ في قَدَالِ
الدُّمُسْتَقِ^(١٣) ، والنعلُ حاضرةٌ إن عادت العُقْبُ . والعقوبة ممكنةٌ إن
أصِرَّ المذنب .

وهَبْهَا لَمْ تَلَا حَظَّكَ بَعَيْنٍ كَلِيلَةٍ عَنْ عِيُوبِكَ ، مِلَّوْهَا حَبِيبُهَا^(١٤) ، وَحَسَنَ

(١) نَفَخَتْ في غير ضَرَمَ : أى في رماد لا في نار .

(٢) المَحْزُ : مكان الحَزْ أى القَطْع .

(٣) مثل يضرب لمن قنع بسلامة نفسه في مطلبه .

(٤) مثل يضرب لمن يرجع بالخيبة .

(٥) يقال إن رجلاً من بني سليم كان يعبد صنماً فبالت عليه الثعالب ، فكسره . وسارع إلى الإسلام .

(٦) البيت من قصيدة في الرثاء لأبي تمام .

(٧) نُخِرَتْ : من التخيير وهو صوت الأنف عند الغضب .

(٨) يَمَسُ : عيس وغضب .

(٩) عَيس : قطب وجهه .

(١٠) أَبْدَأَتْ وَأَعَدَّتْ : كررت كلاماً يسوءك .

(١١) يقال أَرَعَدَ وأَبْرَقَ إذا هدد .

(١٢) هَمَّتْ : أى همت بشئ تعطير كالقتل ونحو ذلك .

(١٣) الدُّمُسْتَقُ : من قواد الروم هزمه سيف الدولة ، يريد ابن زيدون أنه لولا الحرمة لفعل بهذه المرأة . فعل سيف الدولة بالدُّمُسْتَقِ ، والقَدَالِ : القفا .

(١٤) مِلَّوْهَا حَبِيبُهَا : ترى حبيبها كل شئ في الحياة .

فِيهَا مَنْ تَوَدَّ . وَكَانَتْ إِذَا حَلَّتْكَ بِحُلَاكَ ، وَوَسَمَّتْكَ بِسِيَاكَ ، وَلَمْ تُعْمَرْكَ شَهَادَةٌ ،
وَلَا تُكَلِّفَتْ لَكَ زِيَادَةٌ ، بَلْ صَدَقَتْ سِينٌ ^(١) بِكُرِّهَا فِيمَا ذَكَرْتَهُ عَنْكَ ،
وَوَضَعَتْ الْهَيْئَاءَ مَوَاضِعَ النُّقَبِ ^(٢) بِمَا نَسَبْتَهُ إِلَيْكَ ، وَلَمْ تَكُنْ كَاذِبَةً فِيمَا أُثْنْتُ
بِهِ عَلَيْكَ ، فَالْمُعِيدِي تُسْمَعُ بِهِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَرَاهُ ، هَجِينٌ ^(٣) الْقَذَالُ . أُرْعَنُ
السَّبَالُ ^(٤) ، طَوِيلُ الْعُنُقِ وَالْعِلَاوَةُ ^(٥) ، مُقَرِّطُ الْحُقِّ وَالْقَبَاوَةُ . سَيِّءُ
الْجَابَةِ ^(٦) وَالسَّمْعُ ، بَغِيضُ الْمَيْتَةِ . سَخِيفُ الزَّهَابِ وَالْجَمِيئَةُ ، ظَاهِرُ الْوَسْوَاسِ
مُنْتَنِ الْأَنْفَاسِ ، كَثِيرُ الْمَعَايِبِ . مَشْهُورُ الْمَثَالِبِ . كَلَامُكَ تَمْتَمَةٌ ^(٧) ،
وَحَدِيثُكَ نَعْمَةٌ ^(٨) ، وَبَيَانُكَ فَهْمَةٌ ^(٩) ، وَضَحِكُكَ فَهْقَةٌ ، وَمَشِيكَ هَرَوَلَةٌ .
وَعِنَاكَ مَسْأَلَةٌ ^(١٠) . وَدِينُكَ زَنْدَقَةٌ ، وَعِلْمُكَ مَخْرَقَةٌ ^(١١) :

مَسَاوٍ لَوْ قُسِمْنَ عَلَى الْغَوَانِي لَمَّا أُمِرْنَ إِلَّا بِالطَّلَاقِ ^(١٢)

حَتَّى إِنْ بَاقِلًا ^(١٣) مَوْصُوفٌ بِالْبَلَاعَةِ إِذَا قَرِنَ بِكَ ، وَهَبْنَقَةٌ ^(١٤) مُسْتَوْجِبٌ

- (١) يُقَالُ صَدَقْتَ سِنْ بِكُرِّهَا أَيْ لَمْ تَقُلْ إِلَّا صَدَقًا ، وَالْبَكْرُ : الْفَتَى مِنَ الْإِبِلِ .
(٢) مِثْلُ يَضْرِبُ لِمَنْ يَضَعُ الْأَمْرَ فِي مَوْضِعِهِ ، وَالْهَيْئَاءُ : الْقَطْرَانُ ، وَالنُّقَبُ : مَبَادِيُ الْحَرْبِ فِي الْبَعِيرِ وَكَانُوا يُدَاوِنُونَهُ بِالْقَطْرَانِ .
(٣) هَجِينُ الْقَذَالِ : كُنَايَةٌ عَنْ خَسَةِ الْأَصْلِ . وَالْقَذَالُ : الْقَفَا .
(٤) السَّبَالُ : الشَّارِبُ . يُرِيدُ أَنَّهُ أَحَقُّ .
(٥) الْعِلَاوَةُ : أَعْلَى الرَّأْسِ . وَطَوِيلُ الْعُنُقِ وَالرَّأْسِ عِنْدَ الْعَرَبِ دَلِيلُ الْحَاجَةِ .
(٦) الْجَابَةُ : الْإِجَابَةُ .
(٧) التَّمْتَمَةُ : التَّرَدُّدُ فِي التَّائِهَةِ مِنْ مَعَايِبِ النَّاطِقِ .
(٨) النَّعْمَةُ : أَنْ يَسْمَعَ الصَّوْتُ وَلَا تَبَيَّنَ الْكَلِمَاتُ وَالْحُرُوفُ .
(٩) الْفَهْمَةُ : عَمَى فِي النَّاطِقِ بِتَرْدِيدِ الْقَاءِ فِي الْكَلَامِ .
(١٠) يُرِيدُ أَنْ مَالَهُ مِنْ سُؤَالِ النَّاسِ .
(١١) مَخْرَقَةٌ : مِنَ الْخَرْقِ وَهُوَ الْخَطُّ .
(١٢) الْبَيْتُ لِأَنَّهُ تَمَامٌ مِنْ قَضِيذَةِ فِي الْكَلِمَاتِ .
(١٣) بَاقِلٌ : يَضْرِبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي الْفَتَى .
(١٤) هَبْنَقَةٌ : يَضْرِبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي الْحَبْلِ وَتَضَعُ الْعُقُلُ .

لا سمّ العقل إذا أضيف إليك . وطُونَساً^(١) ماثورٌ عنه يُمن الطائر إذا قيسَ عليك ، فوجودك عدَمٌ . والاعتباط بك نَدَمٌ ، والخبية منك ظَفَرٌ ، والجنّة معك سَقَرٌ^(٢) . كيف رأيتَ لؤمك لكرمي كفاء^(٣) ، وضعتك لشرفي وفاءً ! وأنى جهلتَ أن الأشياء إنما تنجذبُ إلى أشكالها ، والطير إنما تقع على ألأفها ؟ وهلا علمتَ أن الشرق والغرب لا يجتمعان ، وشعرتَ أن المؤمن والكافر لا يتقاربان . وقلت : الخبيث والطيب لا يستويان^(٤) . وتمثلتَ : أيها النكح الثرياً سهيلاً عمرك الله كيف يلتقيان^(٥)

وذكرتَ أني علق^(٦) لا يباع ممن زاد ، وطائر لا يصيده ممن أراد . وغرض لا يصيبه إلا من أجاد ؟ ما أحسبك إلا كنتَ قد تهيتَ للتهنئة ، وترشيتَ للترفة^(٧) ! . ولولا أن جرح العجماء جبار^(٨) ، للقيتَ من الكواعب ما لاقى يسار^(٩) ، فاهمّ إلا ببعض ما به هممتَ ، ولا تعرض إلا لأيسر ما له تعرضتَ ،

(١) مَن بالمدنية في العصر الأموي كانوا يتشامسون منه . وله نوادر في الشوم مشهورة .

(٢) سقر : جهنم .

(٣) كفاء : مكافئاً ومناظراً .

(٤) إشارة إلى قوله تعالى (لا يستوى الخبيث والطيب) .

(٥) البيت لابن أبي ربيعة قاله حين تزوجت الثريا سهيلاً بن عمر بن عبد العزيز .

(٦) الملق : النفيس .

(٧) الترفّة : التهنئة بالزواج .

(٨) هذا نص حديث للرسول صلى الله عليه وسلم ، والمعجم : البهيمة ، والجبار : الدم

الهدر . ومعنى الحديث أنه لا قصاص في جرح البهيمة . وضرب به ابن زيدون المثل للدلالة على الاستهانة بابن عبدوس .

(٩) يسار : عبد آذته مولاته حين توفى أنها تحبه .

أين ادعاؤك رواية الأشعار ، وتعاطيك حفظ الشير والأخبار ، أما ثاب إليك قول الشاعر^(١) :

بنو دارم أكذاوم آلُ مِسمعٍ وتَعقِد في أكفائها الحَبِطَاتُ
وهلا عَشَبٌ^(٢) ولم تَعْتَر ، وما أَمْنُكَ أن تكون وافدَ البراجم^(٣) أو ترجع
بصحيفة المتلّس^(٤) ، وهل عَصَلَنِي^(٥) هَمَامُ بنِ مِرَّةٍ فَأَقُول : « رَوِّجْ من عود
خير من قُعود » .

ولعمري لو بَلَقْتُ هذا المبلغ لارتفعت عن هذه الحِطَّة ، وما رَضِيتُ بهذه
الخطَّة ، فالنارُ ، ولا العار ، والمنية ولا الدَّنيَّة ، والحُرَّة تجوعُ ولا تأكل بِتَدْبِيرِهَا .
وما كنتُ لأَنْخَطِي المِسْكَ إلى الرَّمَاد ، ولا لأَمْطِي الثَّوْرَ بعد الجِوَاد ، فإنما
يَنْيَمُّ من لم يجد ماءً ، وَيَزَعِي الهَشِيمَ^(٦) ، مَنْ عَدِمَ الجَلِيمَ^(٧) ، وَيَرْكَبُ
الصَّعْبَ^(٨) مَنْ لَا ذُلُولَ لَهُ . ولعلك إنما غَرَّكَ مَنْ عَلِمْتَ صَبَوْتِي إِلَيْهِ ؟ وشَهِدْتَ

(١) هو الفرزدق . والبيت واضح أنه في هجاء حبيطات ، فقومه بنو دارم إنما
يصهرون إلى بني مسمع ، أما الحبطات فيصهرون إلى من يناظر ونهم في الحسة .

(٢) عشب : رقت ، وهو مثل يضرب بالأخذ بالثقة .

(٣) وافد البراجم : رجل من تميم أحرقه عمرو بن هند .

(٤) يقال إن المتلّس وفد على أحد ملوك الحيرة في الجاهلية فكتب له صحيفة إلى عامل من
عماله ، وتناولها المتلّس وهو يظنه كتب له بجائزة ، فأقرأها شخصاً ، وكان هو أميا ، فعرفه أنه يأمر
عامله بقتله والتمثيل به .

(٥) عضل : منع من الزواج ، وكان همام بن مرة منع بنته الأربع من الزواج
وخرجن على رغبته فضرب به وهن المثل .

(٦) الهشيم : التبت اليابس .

(٧) الجليم : التبت الرطب .

(٨) الصعب : الجامح الذي لا يطيع ، فهو ضد الذلول .

مُسَاعَفَتِي لَهُ، مِنْ أَقَارِ الْعَصْرِ، وَرِيحَانِ الْمِصْرَ، الَّذِينَ هُمُ الْكَوَاكِبُ عَلَوْ هِمَمٌ،
وَالرِّيَاضُ طَيْبٌ شِيمٌ :

مَنْ تَلَقَّ مِنْهُمْ ثَقْلًا لَاقَيْتُ سَيِّدَهُمْ مثلَ النجوم التي يسرى ^(١) بها السَّارِي
فَيَحْنُ قَدْحٌ ^(٢) ليس منها ما أنتَ وهم ؟ وأنى تقع منهم ؟ وهل أنتَ إلا واو
عمرو فيهم ، وكالوشيطه ^(٣) في العظم بينهم .

وإن كنتَ إنما بَلَّغْتَ قَعْرَ تَابُوتِكَ ^(٤) ، وبجافيت عن بعض قوتك ،
وعَطَّرْتَ أُرْدَانَكَ ^(٥) ، وَجَرَّرْتَ هِمْيَانَكَ ^(٦) ، واختَلَّتْ في مِشْيَتِكَ ،
وحَذَفْتَ فَضُولَ لِحْيَتِكَ ، وَأَصْلَحْتَ شَارِبَكَ ، وَهَطَطْتَ حَاجِبَكَ ، وَرَقَّقْتَ
خَطَّ عِذَارِكَ ^(٧) ، واستأنفت عَقْدَ إِزَارِكَ ^(٨) . رجاء الاكْتِنَانِ فيهم . وطمعا
في الاعتمادِ منهم . فظنَنْتَ عَجْزًا ، وأخطأتَ الغرضَ . والله لو كَسَاكَ
مُحَرَّقٌ ^(٩) البرُذَيْنِ ، وحَلَّتْكَ مَارِيَةٌ ^(١٠) بِالْقُرْطَيْنِ ، وَقَلَّدَكَ عمرو ^(١١)

(١) يسرى : من السرى وهو المشى ليلا . والبيت لشاعر يسمى عبيد بن الرزديس .

(٢) مثل يضرب لمن يشبه بقوم ليس منهم ، والقَدْح : أحد قُدَاح الميزان .

(٣) الوشيطه : التواء في العظم .

(٤) كناية عن لزوم المنزل ، وقوله : وبجافيت عن بعض قوتك : أى أظهرت الكرم بما تستغضله من قوتك .

(٥) الأردان : الأكام .

(٦) الهميان هنا : السروال .

(٧) العذار : ما يثبت على الخد من الشعر .

(٨) كناية عن التجمل في الثياب .

(٩) محرق : هو عمرو بن هند ملك الحيرة لقب بذلك لتحريره مائة من العرب . ويقال إن

بؤس العرب كانت عظمته ، فأخرج يهودين وقال : ليقيم أحد العرب بحيلة فليأخذها . (١٠)

(١٠) بنت ظالم زوجة أحد ملوك الفساسنة بالشام . اشتهرت بقرطين أحسنهما إلى الكتابة .

(١١) هو عمرو بن معد يكرب الزبيدي اشتهر بسيفه الصمصامة وأدركه الإسلام وأسلم وأبلى

الصَّمَامَةُ ، وحمك الحارث^(١) على النعمة ، ماشككتُ فيك ، ولا سترت^(٢) أباك ، ولا كنتَ إلّا ذاك . وهبك سَامِيَتَهُمْ في ذِرْوَةِ الجَدِّ والحَسَبِ . وجاريتهم في غاية الظَّرْفِ والأدب ، أَلَسْتَ تَأْوِي إلى بَيْتِ قَعِيدَتِهِ^(٣) لكعاج ، إذ كلهم عَزَبٌ خَالِي الذَّرَاعِ^(٤) ، وَأَيْنَ مَنْ أَنْفَرِدَ بِهِ مَنْ لَا غَلَبَ إِلَّا عَلَى الْأَقْلِ الْأَخْسَ مِنْهُ . وهل يجتمع لى فيك إِلَّا الحَشَفُ وسوء الكَيْلَةِ^(٥) ، ويقترن على بك إِلَّا النَّدَةُ والموتُ في بَيْتِ سُلُوبِيَةِ^(٦) .

تعالى الله يا سَلَمَ بْنَ عَمْرٍو أَذْلَ الحِرْصِ أعناق الرجالِ
 ما كان أَخْلَقَكَ بأن تَقْدِرَ بِذِرْعِكَ^(٧) . وَتَرْبِعَ بِذَلِكَ عَلَى ظَلَمِكَ^(٨)
 وَلَا تَكُنْ بِرَأْقِشٍ^(٩) الدَّالَّةَ عَلَى أَهْلِهَا وَعِزَّ السَّوءِ الْمُسْتِثِيرَةَ بِظُلْفِهَا لِحَفْهَا ، فَمَا
 أَرَاكَ إِلَّا سَقَطَ الْعِشَاءِ بِكَ عَلَى سِرْحَانٍ^(١٠) ، وَبِكَ لَا بَظْفِيٍّ أَغْفِرُ^(١١) . قد
 أعذرتُ إِنْ أَغْنَيْتُ شَيْئًا ، وَأَسْمَعْتُ لَوْ نَادَيْتُ حَيًّا :

-
- (١) النعمة : فرس الحارث بن عباد البكرى سيد وائل في الجاهلية .
 (٢) ولا سترت أباك : أى لم تخف أباك ، أى لم تخف شأنك ونسبك .
 (٢) القعيدة : الزوجة ، والكعاج : اللثينة .
 (٤) خالى الذراع : لا يملك شيئاً كما يقال خالى اليد وهو كناية عن خلو اليد عن الزوجة .
 (٥) مثل يضرب فى الخلتين السيتين تجتمعان « والحشف : أوداً التمر .
 (٦) دها رسول الله صلى الله عليه وسلم على عامر بن الطفيل فظهر فى رقبته غدة ومات فى بيت سلوية (من بنى سلول) . فقال : غدة كغدة البعير . وموت فى بيت سلوية . والبيت التالى لأبي العتاهية .
 (٧) تقدر بذرعك : تقيس الأمر بمجهدك .
 (٨) مثل يضرب لمن يكلف نفسه ما لا يقدر عليه ، وتربيع : تقيم ، والظلم : العرج فى البعير .
 (٩) .يشير إلى المثل : (جنت على أهلها براقيش) . وهى كلبة غزا أهلها قوم فلم يعرفوه حتى نبيت ، فكانت شوقاً عليهم .
 (١٠) السرحان « الذئب .
 (١١) مثل يضرب للشهامة « والأعفر : الذى لونه لون المغار أى التراب .

إِنَّ الْعَصَا قَرَعَتْ لَدَى الْحِلْمِ ^(١) وَالشَّيْءُ تَحْقِرُهُ وَقَدْ يَنْمِي ^(٢)
وإن بادرت بالندامة ، ورجعت على نفسك بالملامة ، كنت قد اشتريت
العافية لك ، بالعافية منك ، وإن قلت : جَمْعَةٌ وَلَا طِخْنٌ ^(٣) ، وَرَبِّ صَلَفٍ
تَحْتَ الرَّاعِدَةِ ، وَأَنْشَدْتَ :

لَا يُؤَيِّسُكَ مِنْ مُخَدَّرَةٍ قَوْلُ تُغْلَظُهُ وَإِنْ جَرَحَا ^(٤)
فَعُدْتَ لِمَا نَهَيْتَ عَنْهُ ، وَرَاجَعْتَ مَا اسْتَقْفَيْتَ مِنْهُ ، بَعَثْتُ مِنْ يُزْجِعُكَ
إِلَى الْخَضِرَاءِ ^(٥) دَفْعًا ، وَيَسْتَحِثُّكَ نَحْوَهَا وَكَزًّا ^(٦) وَصَفْعًا ، فَإِذَا صَرْتَ إِلَيْهَا
عَيْثُ أَكَارُوهَا ^(٧) بَكَ ، وَتَسَلَّطَ نَوَاطِيرُهَا ^(٨) عَلَيْكَ ، ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَكَ
لِتَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِكَ ، وَتَرَى مِيزَانَ قَدْرِكَ :

فَمَنْ جَهِلَتْ نَفْسُهُ قَدْرَهُ رَأَى غَسِيرَهُ مِنْهُ مَا لَا يَرَى

٦ - الرسالة الجديدة

يا مولاي وسيدى الذى ودادى له ، واعتمادى عليه ، واعتدادى به ، وامتمادى منه ،
أبقاك الله ماضى حَدِّ الْعَزَمِ ، وارى ^(٩) زَنْدَ الْأَمَلِ ، ثَابِتَ عَهْدِ النِّعْمَةِ . إِنَّ سَلْبَتِنِى

(١) مثل للتحذير .

(٢) مثل للتحذير أيضاً ، والبيت للعارث بن وعلة الشكرى .

(٣) مثل لمن يتوعد ولا يفعل ، والطحن : الطحن . ورب صلف تحت الراعدة : مثل آخر بنفس

المضى . والسحاب الصلف : كثير الرعد قليل الماء . والراعدة : السحابة .

(٤) البيت لبشار بن برد .

(٥) الخضراء : النواحي المزروعة .

(٦) الوكز : ضرب الظهر .

(٧) الأكارون : الفلاحون .

(٨) فواطير : جمع فاطور وهو البستاني .

(٩) الزند الوارى : الزند الجديد الذى تخرج النار .

— أعزك الله — لباس إنعامك ، وعظمتنى من حلى إيناسك ، وأظمأتنى إلى برود^(١) إسعافك ، ونفقت بى كف^(٢) حياطتك ، وغضضت عنى طرف حمايتك ، بعد أن نظر الأعمى إلى تأملى لك ، وسمع الأصم ثنائى عليك ، وأحس الجاد باستحادى^(٣) إليك ، فلا غرو قد يفص بالماء شاربهُ ، ويقتل الدواء المستشفي به ، ويؤتى الحذر^(٤) من مآمنه ، وتكون منيّة التمنى فى أمنيته ، والحين^(٥) قد يسبق جهده الحريص .

كل المصاب قد تمرّ على الفتى وتهون ، غير شامة الحساد
وإنى لأجلد ، وأرى الشامتين أنى لربّ الدهر لا أتضعض^(٦) فأقول^(٧) :
هل أنا إلا يد أدامها سوارها ، وجبين عضة إكليله^(٨) ، ومشرفى^(٩)
ألصقه بالأرض صاقله ، وسمهرى^(١٠) عرضه على النار متفقه^(١١) ، وعبد ذهب
به سيده مذهب الذى يقول^(١٢) .

فقسا ليزدجروا ومن يك حازماً فليتنس أحياناً على من يرحم

(١) برود : بارد ، استمار الماء للإسفاف .

(٢) كناية عن عدم عنايته به ، ونفقت : طرحت ، والحياطة : الرعاية .

(٣) استحاده : طلب حمله ، وفى رواية : باستنادى إليك .

(٤) مثل ومعناه واضح .

(٥) الحين : الموت ، والعبارة كلها مثل مشهور .

(٦) بعد أن بدأ الرسالة بالاستعطاف والتذلل ، أخذ يسرى عن نفسه بضرب الأمثال .

(٧) الإكليل : التاج .

(٨) المشرقى : السيف ، والصاقل : الحداد الذى يحلوه .

(٩) السمهرى : الرمح .

(١٠) متفقه : صاقله وصانعه .

(١١) هو أبو تمام .

هذا العتبُ محمودٌ عواقبه ، وهذه النبوة ^(١) غمرة ^(٢) ثم تنجلي ، وهذه النكبة ^(٣) سحابة صيفٍ عن قليل تقشع ^(٤) ولن يريني من سيدى أن أبطأ سبيته ^(٥) أو تأخر — غير ضنين — غناؤه ^(٦) ، فأبطأ الدلاء فيضاً أملؤها ، وأتقل السحاب مشياً أحفلها ^(٧) ، وأنفع الحيا ^(٨) ما صادف جدباً وألذ الشراب ما أصاب غليلاً ^(٩) . ومع اليوم غد ، ولكل أجل كتاب . له الحمد على اهتiale ^(١٠) ، ولا عتب عليه في إغفاله :

فإن يكن الفعل الذى ساء واحداً فأفعاله اللاتى سررن أوف وأعود فأقول ^(١١) : ليت شعرى ما هذا الذنب الذى لم يستغفوك ^(١٢) والجهل ^(١٣) الذى لم يأت من ورائه حلك ، والتطاول ^(١٤) الذى لم يستغفره تطولك ^(١٥) ، والتحامل الذى لم يف به احتمالك ، ولا أخلو من أن أكون بريثاً فإن العدل؟ أو مسيئاً فإن الفضل ؟ !
إلا يكن ذنبٌ فعذلك واسع ^(١٦) أو كان لى ذنبٌ ففضلك أوسع ^(١٧)

(١) النبوة : الجفوة .

(٢) الغمرة : الشدة ، وهذا مثل يضرب للسمر بعد العسر .

(٣) مثل آخر بنفس المعنى ، وتقشع : تقلع .

(٤) السيب : المطاء .

(٥) الفناء : المال والنفع .

(٦) أحفلها : أملؤها .

(٧) الحيا : المطر .

(٨) الغليل : شدة العطش .

(٩) الإهتال : الإغتنام وإتاحة الفرصة .

(١٠) رجح ابن زيدون . يتذلل ويقين ذنبه إلى الذنوب الكبيرة ليستغفره . جهور ،

فيقال عفو .

(١١) الجهل : الحق .

(١٢) التطاول : الاستعلاء والتكبر .

(١٣) التطول : التفضل والإحسان .

(١٤) البيت من قصيدة للبحرئى .

حَنَانِكَ ^(١) ! قَدْ بَلَغَ السَّيْلُ الزُّبَى ^(٢) ، وَنَالَنِي مَا حَسَبِي بِهِ وَكَفَى .
 وَمَا أَرَانِي إِلَّا أُمِرْتُ بِالسُّجُودِ ^(٣) لِأَدَمَ فَأَيْتُ وَاسْتَكْبَرْتُ . وَقَالَ لِي نُوحٌ
 ارْكَبْ مَعْنَا ^(٤) قُلْتُ « سَاوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ » وَأُمِرْتُ بِنِيبَاءِ
 الْبَصْرَةِ ^(٥) لَعَلِّي أَطْلُعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى ، وَعَكَّفْتُ عَلَى الْعِجْلِ ^(٦) وَاعْتَدَيْتُ فِي
 السَّبْتِ ^(٧) ، وَتَعَاطَيْتُ فَعَقِرْتُ ^(٨) ، وَشَرِبْتُ مِنْ مَاءِ النَّهْرِ الَّذِي ابْتُلِيَ بِهِ جِنُودُ ^(٩)
 طَالُوتَ ، وَقُدْتُ الْفِيلَ لِأَبْرَهَةَ ^(١٠) ، وَعَاهَدْتُ قَرِيشًا عَلَى مَا فِي الصَّحِيفَةِ ^(١١) ،
 وَتَأَوَّلْتُ فِي بَيْعَةِ ^(١٢) الْعَقَبَةِ ، وَانْخَذَلْتُ بِثُلُثِ النَّاسِ يَوْمَ أُحُدٍ ^(١٣) ، وَنَفَرْتُ إِلَى
 الْعِيرِ ^(١٤) بَيْدَرٍ ، وَتَخَلَّفْتُ عَنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ فِي بَنِي قَرِيطَةَ ^(١٥) ، وَجِئْتُ لِإِفْكَ ^(١٦) عَلَى

(١) حنانك : رحمتك .

(٢) مثل يضرب حين يتفاقم الأمر ، والزبي : جمع زبية . وهي الحفرة في المكان المرتفع .

(٣) يشير إلى استكبار إبليس عن السجود لآدم .

(٤) يتشبه بقصة نوح حين فاض الطوفان فقال لابنه اركب معنا فمضاه ، فقال كما في

القرآن الكريم « سَاوِي الْغ » ففرق .

(٥) يشير إلى قصة فرعون وأنه أمر هامان أن يبني له صرحاً أعلى مما يرى إله موسى .

(٦) قصة العجل الذي عبده بنو إسرائيل حين تأخر عليهم موسى معروفة .

(٧) حرم موسى على قومه أن يصيلا في يوم السبت .

(٨) يشير إلى قصة ناقة صالح وعاقرها أو قاتلها وكيف « دمدم عليهم ربهم بذنبيها » .

(٩) كان طالوت قد حرم على قومه الشرب من نهر فخالقوا ووقعوا في الإثم .

(١٠) يشير إلى قصة أبرهة عامل اليمن من قبل النجاشي وخروجه في جيش لهدم الكعبة .

(١١) هي الصحيفة التي كتبها قريش وتعاهدت فيها على مقاطعة الرسول .

(١٢) ببيعة العقبة : بيعة مشهورة بين الرسول وأصحابه . وقد يفهم من كلامه أن بعض

الصحابية تأول فيها وهو ما لم يحدث مطلقاً .

(١٣) يشير إلى واقعة أحد حين اتخذ من رسول الله ابن سلول ومن معه من المنافقين ، ورجعوا

بنحو ثلث الجيش .

(١٤) الير : الإبل تحمل عروض التجارة أو الميرة . وهو يشير إلى غزوة بدر الكبرى .

وكان أبو سفيان عرف أن الرسول صلى الله عليه وسلم سيتعرض لقاتله فأرسل إلى قريش يستنصرها .

فجاءته بجيش ودارت عليها الدوائر .

(١٥) أمر رسول الله أصحابه بعد غزوة الخندق أن يصلوا البصر في بني قريظة . علم أن من

تخلف لم يعتبر هذا ذنباً له ! . (١٦) قصة الإفك والكذب على السيدة عائشة رضي الله عنها مشهورة .

عائشة الصَّدِيقِيَّةُ ، وَأُنْفِتُ مِنْ إِمَارَةِ أَسَامَةَ ^(١) ، وَزَعَمْتُ أَنْ بَيْعَةَ أَبِي بَكْرٍ كَانَتْ قُلْتَهُ ^(٢) ، وَرَوَيْتُ رَحِمَى مِنْ كَتِيبَةِ خَالِدٍ ^(٣) ، وَمَزَقْتُ الْأَدِيمَ ^(٤) الَّذِي بَارَكْتَ يَدُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَضَحَّيْتُ بِالْأَشْمَطِ ^(٥) ، الَّذِي عَنَوَانُ السُّجُودِ بِهِ ، وَبَذَلْتُ لِقَطَامٍ ^(٦) : ثَلَاثَةَ آلَافٍ وَعَبْدًا وَقَيْنَةً وَضَرْبَ عَلِيٍّ بِالْحُصَايِمِ الْمُسَمِّهِ وَكُتِبْتُ إِلَى عُمَرَ ^(٧) بَنِ سَعْدٍ : أَنْ جَفَّجِعَ ^(٨) بِالْحُسَيْنِ ، وَتَمَثَّلْتُ عِنْدَ مَا بَلَفَنِي مِنْ وَقْعَةِ الْحَرَّةِ ^(٩) :

لَيْتَ أَشْيَاخِي يَبْدُرُ عَلِمُوا جَزَعَ الْخَرْجِ مِنْ وَقْعِ الْأَسَلِ
وَرَجَمْتُ الْكَعْبَةَ ، وَصَلَبْتُ الْعَائِذَ ^(١٠) بِهَا عَلَى الثَّنِيَّةِ — لَكَانَ ^(١١) فِيمَا جَرَى عَلَى مَا يَحْتَمَلُ أَنْ يُسَمَّى نَكَلًا ، وَيُدْعَى وَلَوْ عَلَى الْجَازِ عَقَابًا :

(١) يشير إلى ما يروى من أن بعض الصحابة غضب حين ولي عليهم أسامة .

(٢) قال عمر : كانت بيعة أبي بكر فلتة « ولم يرد بقوله سواء بأبي بكر ، فمن الخطأ أن يتمثل في الذنوب بهذه العبارة .

(٣) يشير إلى من حاربوا خالدًا في أيام الرودة .

(٤) يشير إلى قتل عمر وقول الشاعر في رثائه :

جَزَى اللَّهُ خَيْرًا مِنْ إِمَامٍ وَبَارَكْتَ يَدَ اللَّهِ فِي ذَلِكَ الْأَدِيمِ الْمَسْزُوقِ
(٥) الْأَشْمَطُ : الَّذِي فِي شَعْرِهِ يَبَاضُ بِخَالِطِهِ سَوَادٌ ، وَهُوَ يَقْصِدُ عُمَانَ مَشِيرًا إِلَى مَقْتَلِهِ وَفِيهِ يَقُولُ حَسَنٌ :

فَضَحُوا بِأَشْمَطِ عَنَوَانِ السُّجُودِ بِهِ يَقْطَعُ اللَّيْلَ تَسِيحًا وَقَرَأْنَا

(٦) قَطَامٌ : صَاحِبَةُ ابْنِ مَلْجَمٍ قَاتِلَ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ .

(٧) يشير إلى قتل الحسين « وأخطأ ابن زيدون لأن الذي كتب إليه هو الحرث بن يزيد الحميري لا عمر بن سعد .

(٨) جَفَّجِعُ : ضَيِّقُ اخْتِلَاقٍ .

(٩) الممثل هو يزيد بن معاوية ، تمثل بهذا البيت لابن الزبير الذي نظمته في واقعة أحد ، وذلك حين علم بهزيمة بني عتبة لأهل المدينة الخارجين عليه .

(١٠) يشير إلى رجم الحجاج الكعبة بالمنجنيق وقتله للعائذ بها ، وهو عبد الله بن الزبير ، حل الثنية وهي طريق الكعبة .

(١١) جواب « لو » المذكورة في السطر الثاني من الصفحة السابقة .

وَحَسْبُكَ مِنْ حَادِثٍ بَامِرٍ تَرَى حَاسِدِيهِ لَهُ رَاحِيْنَا

فَكَيْفَ ^(١) وَلَا ذَنْبَ إِلَّا نَعِيْمَةٌ أَهْدَاهَا كَاشِحٌ ^(٢) وَنَبَأٌ جَاءَ بِهِ فَاسِقٌ . وَهُمْ
الْمُحَازِنُونَ ^(٣) الْمَشَاوُونَ ^(٤) بَنَمِيمٍ . وَالْوَاشُونَ الَّذِينَ لَا يَلْبَثُونَ أَنْ يَصْدَعُوا
الْعَصَا ^(٥) ، وَالْفَوَاةُ الَّذِينَ لَا يَتْرَكُونَ أَدِيمًا ^(٦) صَحِيحًا ، وَالسَّعَاةُ الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ
الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ فَقَالَ . مَا ظَنُّكَ بِقَوْمٍ الصَّدَقُ مَحْمُودٌ إِلَّا مِنْهُمْ :
حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيْبَةً . وَلَيْسَ وَرَاءَ اللَّهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبٌ ^(٧)

وَاللَّهُ مَا غَشَّ شُكُّكَ بَعْدَ النَّصِيحَةِ ، وَلَا انْحَرَفَتْ عَنْكَ بَعْدَ الصَّاعِيَةِ ^(٨) ، وَلَا
نَصَبْتُ ^(٩) لَكَ بَعْدَ التَّشْيِيعِ ، وَلَا أَرْمَعْتُ ^(١٠) يَا سَأَا مِنْكَ مَعَ ضَمَانٍ تَكْفُلْتُ
بِهِ النِّقَّةَ عَنْكَ . وَعَهْدٌ أَخَذَهُ حُسْنُ الظَّنِّ عَلَيْكَ . فَقِيمَ عَيْثَ الْجَفَاءِ بِأَدِمَّتِي ^(١١)
وَعَاثَ الْمُقَوِّقُ فِي مَتَانِي ^(١٢) . وَتَمَكَّنَ الضِّيَاعُ مِنْ وَسَائِلِي ؟ وَلَمْ ضَاقَتْ مَذَاهِبِي :
وَأَكَدْتُ ^(١٣) مَطَالِبِي ؟ وَعَلَامَ رَضِيْتُ مِنَ الْأَمْرِ كَبَّ بِالتَّعْلِيْقِ ^(١٤) ، بَلْ مِنَ الْغَنِيْمَةِ

(١) أَخَذَ يَبْرَأُ نَفْسَهُ مِنَ التَّهْمَةِ الَّتِي دَسَّهَا عَلَيْهِ الْغَامُونَ وَالْوَاشُونَ كَذِبًا .

(٢) كَاشِحٌ : عَلُوٌّ .

(٣) الْمُحَازِنُونَ : مِنَ الْهَمَزِ وَهُوَ التَّيْبَةُ .

(٤) الْمَشَاوُونَ : السَّاعُونَ بِالنَّعِيْمَةِ .

(٥) كَتَايَةُ مِنَ التَّفْرِيقِ .

(٦) الْأَدِيمُ : الْجِلْدُ . كَتَايَةُ مِنَ الشَّخْصِ كُلِّهِ .

(٧) الْبَيْتُ لِلنَّابِغَةِ .

(٨) الصَّاعِيَةُ : الْمِيلُ .

(٩) نَصَبْتُ لَكَ : عَادَيْتُكَ .

(١٠) أَنْعَمَ : أَقْدَمَ .

(١١) الْأَذْنَةُ : الْحَرَامَاتُ . جَمْعُ ضَمَامٍ .

(١٢) الْمَتَاتُ : مَا يَتَوَصَّلُ بِهِ الْإِنْسَانُ إِلَى آخَرٍ مِنْ رَحِمٍ أَوْ قَرَابَةٍ وَفِي رَوَايَةٍ : فِي مَوَدِّقٍ .

(١٣) أَكَدْتُ : بَخَلْتُ .

(١٤) يَرِيدُ أَنَّهُ يَكْتَفِي مِنَ الرُّكُوبِ بِتَعْلِيْقِ الْأَمْتَةِ .

بالإياب^(١) ، وأنى غلبنى المغلب^(٢) ، وفخر على العاجز الضعيف ، ولطمتمنى
غير ذات سوار^(٣) ؟ . ومالك لا تمنع منى قبل أن أقترس ، وتذركنى ولما أمزق .
أم كيف^(٤) لا تنصرم جوانح الأكفاء^(٥) . جسدألى على الخصوص بك .
وتتقطع أنفاس النظراء منافسة فى الكرامة عليك ، فكيف وقد زاننى رسم
خدمتك . وزهانى وسم نعمتك ، وأبليت البلاء الجليل فى مماطك^(٦) ، وقت
المقام المحمود على بساطك :

ألت الثوالى فىك غر فصادى هى الأنجم اقتادت مع الليل أنجما
ثلا يظن الروض منه منورا ضحى ويخال الوشئ فيه منمنما^(٧)
وهل لبس الصباح إلا بردا طرزه بفضائك ، وتقلدت الجوزاء إلا عقدا
فصلته بما ترك . واستبلى الربيع إلا ثناء ملاته بمحاسنك ، وبث المسك إلا
حديثا أذعته فى محامدك ؟ . ما يوم حليلة بسر^(٨) ، وإن كنت لم أكسك
سلييا . ولا حليتك عطلا . ولا سمتك غفلا ، بل وجدت أجرا وجصا
فبنيت ، ومكان القول ذا سعة قلت . جاش لك أن أعد من العاملة الناصبة^(٩) ،

(١) يشير إلى قول امرئ القيس :

لقد طوفت فى الآفاق حتى رويت من الغنمة بالإياب

(٢) المغلب : الضعيف .

(٣) فى المثل لذات سوار لطمتى ، ويقصد أن اللطم ضعيف .

(٤) انتقل ابن زيدون إلى بيان إخلاصه للممدوح وكيف كان من مداحه وخاصته .

(٥) الأكفاء : النظراء .

(٦) السباط : الصف .

(٧) البيتان من قصيدة للبحرئى .

(٨) مثل يضرب فى كل أمر مشهور .

(٩) يشير إلى قوله تعالى « وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصية تفعل تأارا حامية »

وأكون كالذبالة المنصوبة تُضَيء للناس وهي تحترق^(١)، فلك المثل الأعلى ، وهو بك ، وبي فيك ، أولى .

ولعمرك ما جهلت أن صريح الرأي أن أتحوّل^(٢) إذا بلفتني الشمس ونبا بني المنزّل ، وأصفح^(٣) عن المطامع التي تقطّع أعناق الرجال ، ولا أستوطئ العجز ، ولا أطمئن إلى الغرور ، فيضرب بي المثل : خامري أم عامر^(٤) . وإني مع المعرفة بأن الجلاء^(٥) سياء ، والنقلة مثلة^(٦) .

ومن يقترب عن قومه لم يزل يرى مصارعَ مظلوم : مجرّاً ومسحّباً وتدفن منه الصالحات ، وإن يُسىء ، يَكُنْ ما أساء النار في رأس ككبكب^(٧) .

لعارف أن الأدب الوطن الذي لا يُخشى فراقه ، والخليط الذي لا يُتوقع زياله ، والنسب الذي لا يُحَقُّ ، والجمال الذي لا يُخفى . ثم ما قرأ السعد بالكواكب أبهى أثراً ، ولا أشتى خطراً ، من اقتران غنى النفس به ، وانتظامها نسقاً معه ، فإن الحائز لهما الضارب بسهم فيهما — وقليل ما هم — أينما توجه وردّ أعذب منهل . وخط في جناب قبول فنزل ، وضوحك قبل إنزال رَحله ، وأعطى حكم الصبي على أهله .

(١) نثر قول العباس بن الأحنف .

صرت كأنى ذبالة نصبت قضيه للناس وهي تحترق

(٢) هنا ثارت نفس ابن زيدون . فأخذ يهدد بفراقه الوطن ، وأنه لا يصبر على المهوان .

(٣) أصفح : أضرب وأعرض .

(٤) خامري : استري . وأم عامر : الضبيج ، وهو مثل يضرب لمن عرف الدنيا ومصيرها

وتقباتها ومع ذلك لا تزال نفسه متعلقة بها .

(٥) الجلاء : التزوح عن الوطن ، والسبأ : السبي والأسر .

(٦) مثلة : نكال وعقاب .

(٧) ككبكب : اسم جبل بعينه . وهو الجبل الذي تجمله خلف ظهرك إذا وقفت مع الإمام

بمرقات (عن معجم ما استعجم) . والبيتان للأعشى .

وقيل له : أهلاً وسهلاً ومرحباً فهذا مبيتٌ صالحٌ ومقيلٌ^(١)
غير أن الوطن محبوبٌ^(٢) والمنشأ مألوف ، واللييب يحنُّ إلى وطنه ، حينئذٍ
النجيب^(٣) إلى عطنته ، والكريم لا يحفؤ أرضاً فيها قوايله^(٤) ، ولا ينسى
بلداً فيها مراضعه ، قال الأول^(٥) :

أَحَبُّ بِلَادِ اللَّهِ مَا بَيْنَ مَنْعَجٍ^(٦) إِلَىَّ وَسَلَمَى أَنْ يَصُوبَ^(٧) سَحَابُهَا
بِلَادُهَا حَلَّ الشَّابُّ تَمَامِي^(٨) وَأَوَّلُ أَرْضِ مَسٍّ جِلْدِي تَرَاهَا
هذا إلى مغالاتي بعقد^(٩) جوارك ، ومنافستي في الحظ من قرُبِكَ ، واعتقادي
أن الطمع في غيرك طبع^(١٠) ، والغنى من سواك عناء ، والبذل منك عوز^(١١) ،
والعوض لقاء^(١٢) :

وَإِذَا نَظَرْتُ إِلَى أُمِيرِي زَادَنِي ضَنْناً بِهِ نَظَرِي إِلَى الْأَمْرَاءِ^(١٣)

(١) مقيل : من القليلة وهي هنا مقابل «مبيت» فيراد بها قضاء اليوم كله . والبيت لعمرو بن الأهم .
(٢) هدأت ثورة ابن زيدون فأخذ يعلن أنه لن يزايل جوار جهور ولا مدينته التي هي
وطنه وبلده .

(٣) النجيب : الكريم من الإبل ، والعطن : مبارك الإبل حول الغاء .
(٤) القوايل : جمع قابلة ، وهي التي تستقبل المولود عند نزوله .
(٥) يروي هذا البيت لأعرابية من طيء وفي رواية ثانية أنه لأبي النضر الأسدي وفي رواية
ثالثة أنه للرقاع بن قيس الأسدي . انظر سبط اللات للبكري ١/ ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

(٦) منعج : موضع .

(٧) يصوب : يهطل .

(٨) التمام : جمع تميمية وهي العوذة التي تعلق على الصبي لاقتناء الحسد .

(٩) العقد : الضمان والعهد .

(١٠) طمع : دقاة ونخسة .

(١١) عوز : فاقة .

(١٢) لقاء : نخسة .

(١٣) البيت لعدي بن الرقاع .

وكلُّ الصَّيْدِ فِي جَوْفِ ^(١) الْقَرَا ، وَفِي كُلِّ شَجَرَةٍ نَارٌ ، وَاسْتَمَجَدَ الْمَرْخُ
وَالْعَفَّارُ ^(٢) .

فَإِنَّ هَذِهِ الْبَرَاءَةَ ^(٣) مِمَّنْ يَتَوَلَّاهُ ، وَالتَّيْلُ عَنْ لَيْمِيلٍ عَنْكَ ، وَهَلَّا كَانَ
هَوَاكَ فِيمَنْ هَوَاهُ فَيْكَ ، وَرِضَاكَ لِمَنْ رِضَاهُ لَكَ :

يَا مَنْ يَعِزُّ عَلَيْنَا أَنْ نَفَارِقَهُمْ وَجَدَانَا كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَكُمْ عَدَمٌ ^(٤)
أَعْيِذْكَ وَنَفْسِي مِنْ أَنْ أَشِيمَ ^(٥) خُلْبًا ، وَاسْتَمْطِرْ جِهَامًا ^(٦) ، وَأَكْدِمَ فِي غَيْرِ
مَكْدَمٍ ^(٧) ، وَأَشْكُو شَكْوَى الْجَرِيحِ إِلَى الْعِقْبَانِ وَالرَّخَمِ ^(٨) . وَإِنَّمَا أَبْسَنْتُ ^(٩)
لَكَ لَتْدُرَّ ، وَحَرَكْتُ لَكَ الْحَوَارِ ^(١٠) لَتَحْنَنَّ ، وَنَبَهْتُكَ لِأَنَامٍ ، وَسَرَيْتُ إِلَيْكَ ،
لَأَحْمَدَ السَّرَى لَدَيْكَ ؛ بَعْدَ الْيَقِينِ أَنَّكَ إِنْ سَنَيْتَ ^(١١) عَقْدَ أَمْرِي تَبَسَّرَ ، وَمَتَى
أَعَذَّرْتَ ^(١٢) فِي فَكٍّ أُسْرِي لَمْ يَتَعَذَّرْ . وَعِلْمُكَ مُحِيطٌ بِأَنَّ الْمَعْرُوفَ ثَمَرَةُ النِّعْمَةِ
وَالشَّفَاعَةُ زَكَاةُ الْمُرُوءَةِ ، وَفَضْلُ الْجَاهِ ، تَعُودُ بِهِ ، صَدَقَ :

(١) مثل يضرب في الشيء الذي يفضل غيره ، والفرا : حمار الوحش .

(٢) نفس معنى المثل السابق « والمرخ والعفار : نوعان من الشجر سريعا الاتقاد ، واستجدا : زادا نارا واحترقا .

(٣) رجع ابن زيدون يستعطف ابن جهور متذلا خاضعا لعله يلين له .

(٤) البيت المتنبي .

(٥) شام خلبا : نظر إلى برق لا يصحبه مطر .

(٦) الجهام : السحاب لا غيث فيه .

(٧) مثل يضرب لمن يطلب الشيء من غير موضعه ، والكدم : العض .

(٨) نثر ابن زيدون هنا قول المتنبي :

وَلَا تَشْكُ إِلَى قَوْمٍ فَتَشْتَمُ شَكْوَى الْجَرِيحِ إِلَى الْعِقْبَانِ وَالرَّخَمِ

وَالْعِقْبَانِ : جمع عقاب ، والرخم : من جوارح الطير كالنسور .

(٩) أبست : رفقت . وتدر : تليل ، كناية عن تحوله إلى الرضا .

(١٠) الحوار : ولد الناقة .

(١١) سنى : سهل .

(١٢) : أعذر : طلب العذر .

وإذا امرؤٌ أهدى إليك صنيعةً من جاهه فكانها من ماله^(١)
 لعلِّي ألقى العصا بذراك^(٢) ، وتستقرّ بي النوى في ظلك ، وأستأنف التأدّب
 بأدبك ، والاحتيال على مذهبك ، فلا أوجد للحاسد مجال لحظة . ولا أدع
 للقاح مساع لفظه . والله شهيدك من إطلابي^(٣) بهذه الطلبة ، وإشكائي^(٤) من
 هذه الشكوى ، بصنيعة تصيب منها مكان المصنع^(٥) ، وتستودعها أحفظ
 مستودع ، حسبما أنت خليق له ، وأنا منك حريٌّ به ، فذلك بيدك ،
 وهينٌ عليك .

ولما توالى غررُ هذا النثر ، وانسقت دُرره . فهزّ عطف غلوائه ، وجرّ
 ذيل خيلائه ، عارضه النظم مباهايا ، بل كايده مداهيا ، حين أشفق من أن يعطفك
 استعطافه . وتميل بنفسك ألطافه ، فاستحسن المائدة^(٦) منه ، واعتدّ بالفائدة له
 فما زال يستكدّ الذهن العليل ، والخطر الكليل ، حتى زفّ إليك عروساً
 مجلوة في أثوابها . منصوصة^(٧) بحليها وملابها^(٨) . وهامى :

الهوى في طلوع تلك النجوم والمنى في هبوب ذاك النسيم
 سرّنا عيشنا الرقيق الحواشي لو يدوم السرور للمستقيم

(١) البيت لأبي تمام .

(٢) الذرى : الكنف والجانب .

(٣) إطلابي : من أطلبه أى أعطاه ما طلبه .

(٤) إشكائي : إزالة شكوى .

(٥) المصنع : الصنع والمعروف . مصدر ميمي .

(٦) المائدة : النفع .

(٧) منصوصة : مجلوة .

(٨) الملابس : الزعفران .

وَطَرَهُ مَا انْقَضَى إِلَى أَنْ تَقْضَوْا زَمَنُ مَا ذِمَامُهُ ^(١) بِالنِّمِ
 إِذْ خِتَامُ الرِّضَا الْمَسْوُوعِ مِسْكٌ ^(٢) وَمِزَاجُ الْوَصَالِ مِنْ تَسْنِيمٍ ^(٣)
 وَغَرِيضٍ ^(٤) الدَّلَالِ غَضٌّ ^(٥) جَنَى الصَّبْوَةِ نَشْوَانٌ مِنْ سُلَافِ النِّعَمِ
 طَالَمَا نَافَرَ الْهَوَى مِنْهُ غِرٌّ ^(٦) لَمْ يَطْلُ عَهْدٌ جِيدُهُ بِالنِّمِ ^(٧)
 زَارَ مُسْتَخْفِيًا وَهِيَّاتُ أَنْ يَخْفَى سُرَى الْبَدْرِ فِي الظَّلَامِ الْبِهِمِ
 فَوْشَى الْخَلَى إِذْ مَشَى وَهَذَا الطَّيِّبُ إِلَى حِسٍّ كَاشِحٍ بِالنِّمِ
 أَيُّهَا الْمُؤَذِّنِي بَظْلَمِ اللَّيَالِي لَيْسَ يَوْمِي بِوَاجِدٍ ^(٨) مِنْ ظُلُومِ
 قَمَرِ الْأَفْقِ إِنْ تَأَمَّلْتَ وَالشَّمْسُ، هَا يُكْسِفَانِ دُونَ النُّجُومِ
 وَهُوَ الدَّهْرُ لَيْسَ يَنْفَكُ يَنْجُو بِالْمُصَابِ الْعَظِيمِ نَحْوِ الْعَظِيمِ
 بَوَّاءُ اللَّهِ جَهْورًا شَرَفِ السُّؤِّ دُدٍ فِي السَّرْوِ ^(٩) وَاللُّبَابِ الصِّمِ
 وَاحِدٌ سَلَّمَ الْجَمِيعَ لَهُ الْأَمْرَ فَكَانَ الْخُصُوصُ وَفَقَ الْعُمُومِ
 قَلَدُ الْغَمْرِ ^(١٠) ذَا التَّجَارِبِ فِيهِ وَكَتَفَى جَاهِلٌ يَعْلَمُ الْعَلِيمِ
 خَطَرٌ ^(١١) يَقْتَضِي الْكَمَالَ بَنُو عَنَى خَلَقَ بَارِعٌ وَخَلَقَ وَسِيمٌ ^(١٢)

(١) - اللام : النهي .

(٢) التسنيم : عين بالجنة ، وفي القرآن الكريم « يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك وفي ذلك

فليتنافس المتنافسون ومزاجه من تسنيم » .

(٣) غريض الدلال : ملو به .

(٤) غرض : ناضر .

(٥) التميم : التيمية وهي المودة .

(٦) واجد : حاقه .

(٧) السرو : الشرف .

(٨) الغمر : قليل التجربة .

(٩) خطر : شرف .

(١٠) وسيم : وقور .

أَيْهَذَا الْوَزِيرُ هَا أَنَا أَشْكُو وَالْمَصَا بَدَهُ قَرَعَهَا لِلْحَلِيمِ ^(١)
 أَفَصَبَرُ مَثِينَ خَمْسًا ^(٢) مِنَ الْأَيَّامِ فَاهِيكَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ
 وَمَعْنَى مِنْ الضَّغْنِ بَهَنَاتٍ نَكَاتٌ ^(٣) بِالْكُلُومِ قَرَحَ الْكُلُومِ
 سَمٌّ لَا أَعَادُ ^(٤) فِيهِ وَفِي الْعَا نَذِرُ أَنْسُ يَنْفِي يَبْرُهُ السَّقِيمِ
 نَارُ بَنِي مَرَى إِلَى جَنَّةِ الْأُمِّ نِي لَطَاهَا فَأَصْبَحْتُ كَالصَّرِيمِ ^(٥)
 أَبِي أَنْتَ إِنْ تَشَأْ تَكُ بَرْدًا وَسَلَامًا كُنَارَ إِبْرَاهِيمِ
 لِلشَّفِيعِ التَّنَادُ ، وَالْحَمْدُ فِي صَوْبِ الْحَيَا ^(٦) لِلرِّيَّاحِ لَا لِلْفُتُومِ
 وَزَعِيمِ ^(٧) بَأَنْ يُذَلَّلَ لِي الصَّبَبُ مَثَابِي ^(٨) إِلَى الْهُمَامِ الزَّعِيمِ
 وَوِدَادُ يُفِيرُ الدَّهْرُ مَا شَاءَ • وَيَبْقَى بَقَاءَ عَهْدِ الْكَرِيمِ
 وَتَنَاءُ أَرْسَلْتُهُ سَلَوَةَ الظَّلَا عَنِ عَنْ شَوْقِهِ ^(٩) وَلَهُوَ الْمُقِيمِ
 فَهُوَ رِيحَانَةُ الْجَلِيسِ • وَلَا فَخْرَ رَ ، وَفِيهِ مِزَاجُ كَأْسِ النَّدِيمِ
 وَمَتَى تَبْدَأُ الصَّنِيعَةَ بُولِغْنِيكَ تَمَامُ الْخِلَاصِ بِالتَّقْصِيمِ
 هَا كَمَا - أَعَزَّكَ اللَّهُ - يَسْطُهَا الْأَمَلُ ، وَيَقْبِضُهَا الْحَجَلُ • لَهَا ذَنْبُ
 التَّقْصِيرِ • وَحُرْمَةُ الْإِخْلَاصِ ، فَهَبْ ذَنْبًا لِحُرْمَةٍ ، وَاشْفَعْ نِعْمَةً بِنِعْمَةٍ ، لِيَتَأَنَّى
 لَكَ الْإِحْسَانُ مِنْ جِهَانِهِ ، وَتَسَلِّكَ إِلَى الْفَضْلِ مِنْ طُرُقَاتِهِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

(١) تفسين للمثل المشهور « إن العصا قرعت لدى الحليم » .

(٢) إشارة إلى أنه قضى في السجن خمسمائة يوم .

(٣) نكأ : أدمى ، والكُلوم : الجروح ، والقرح : ما بالجرح من فساد .

(٤) أعاد : أزار .

(٥) الصريم : الليل الأسود .

(٦) الحيا : النيث .

(٧) زعيم ، كفيل .

(٨) مثابى : رجوى .

(٩) يقول إن مدحه فيه سار على ألسنة الناس • فأصبح سلوة للظالمين أى الراحل ومرة المقيم .

أهم المراجع

- ديوان ابن زيدون نشر كامل كيلائي وعبد الرحمن خليفة .
- تمام المتون شرح رسالة ابن زيدون للصفدي .
- شرح العيون شرح رسالة ابن زيدون لابن نباتة .
- الذخيرة لابن بسام . المجلد الأول . من القسم الأول .
- قلائد العقيان للفتح بن خاقان .
- المعجب في تلخيص أخبار المغرب للمراكشي .
- المغرب في حلى المغرب (طبع دار المعارف) .
- نفح الطيب للمقرئ (طبع ليدن) .

A. Cour, Un poète Arabe d'Andalousie : Ibn Zaidoun.
A.R.-Nykl, Hispano-Arabic poetry.

فهرست

الفصل الأول

عصر ابن زيدون

صفحة	
٥	١ - الحياة السياسية .
٧	٢ - الحياة الاجتماعية .
٩	٣ - الحياة العقلية .
٩	(أ) العلم والفلسفة
١١	(ب) الأدب

الفصل الثاني

ابن زيدون في عصره

١٥	١ - النشأة والمربي .
١٨	٢ - حبه لولادة وسجنه .
٢٥	٣ - في بلاط أبي الوليد بن جهور .
٢٧	٤ - في بلاط بني عباد .

الفصل الثالث

جوانب ابن زيدون

٢٠	١ - ديوانه .
٣٧	٢ - شاعريته .
٤٤	٣ - رسالته الهزلية .
٤٦	٤ - رسالته الجدلية .

الفصل الرابع

منتخبات من آثار ابن زيدون

صفحة

٤٩	١ - نماذج الغزل
٤٩	حنين
٥٣	عمق الهوى
٥٤	لهفة
٥٥	وداع
٥٧	شكوى
٥٨	ذكرى قرطبة
٦٠	٢ - نماذج الاستعطاف
٦٠	تذلل وعتاب
٦٣	سهر وعذاب
٦٧	ألم وعزاء
٦٩	جناية
٧٢	٣ - نماذج المديح
٧٢	ابتهاج
٧٦	ملتص الوزاره
٧٩	شكر
٨٠	تهنئة
٨٥	تحية
٨٨	٤ - نماذج الرثاء
٨٨	تعزية
٩٠	صبر جميل
٩٢	٥ - الرسالة الهزلية
١٠٤	٦ - الرسالة الجدية

كتب للمؤلف مطبوعة بالدار

- في الدراسات القرآنية
 - سورة الرحمن وسور قصار :
 - عرض ودراسة .
 - الطبعة الأولى ٤٠٤ صفحات
- في تاريخ الأدب العربي
 - العصر الجاهلي
 - الطبعة الثامنة ٤٣٦ صفحة
 - العصر الإسلامي
 - الطبعة الثامنة ٤٦١ صفحة
 - العصر العباسي الأول
 - الطبعة السابعة ٥٧٦ صفحة
 - العصر العباسي الثاني
 - الطبعة الثالثة ٦٥٧ صفحة
- في مكتبة الدراسات الأدبية
 - الفن ومذاهبه في الشعر العربي
 - الطبعة العاشرة ٥٢٤ صفحة
 - الفن ومذاهبه في النثر العربي
 - الطبعة الثامنة ٤٠٠ صفحة
 - التطور والتجديد في الشعر الأموي
 - الطبعة السادسة ٣٤٠ صفحة
 - دراسات في الشعر العربي المعاصر
 - الطبعة السابعة ٢٩٢ صفحة
 - شوقي شاعر العصر الحديث
 - الطبعة السابعة ٢٨٦ صفحة
- الأدب العربي المعاصر في مصر
 - الطبعة السابعة ٣٠٨ صفحات
- البارودي رائد الشعر الحديث
 - الطبعة الثالثة ٢٣٢ صفحة
- الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية .
 - الطبعة الرابعة ٣٣٦ صفحة
- البحث الأدبي : طبيعته . ومناهجه .
 - أصوله . مصادره .
 - الطبعة الرابعة ٢٧٨ صفحة
- الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور
 - الطبعة الأولى ٢٥٦ صفحة
- في الدراسات النقدية
 - في النقد الأدبي
 - الطبعة الخامسة ٢٥٠ صفحة
 - فصول في الشعر وقده
 - الطبعة الثانية ٣٦٨ صفحة
- في الدراسات البلاغية واللغوية
 - البلاغة : تطور وتاريخ
 - الطبعة الرابعة ٣٨٠ صفحة
 - المدارس النحوية
 - الطبعة الرابعة ٣٧٦ صفحة

في مجموعة نوايل الفكر العربي

• ابن زيدون

الطبعة التاسعة ١٢٤ صفحة

في مجموعة فنون الأدب العربي

• الرثاء

الطبعة الرابعة ١٠٨ صفحات

• المقامة

الطبعة الخامسة ١١٢ صفحة

• النقد

الطبعة الرابعة ١١٢ صفحة

• الترجمة الشخصية

الطبعة الثالثة ١٢٨ صفحة

• الرحلات

الطبعة الثالثة ١٢٨ صفحة

في التراث المحقق

• المغرب في حلل المغرب لابن سعيد

الجزء الأول - الطبعة الثالثة ٤٦٨ صفحة

الجزء الثاني - الطبعة الثانية ٥٧٢ صفحة

• كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد

الطبعة الثانية ٧٨٨ صفحة

في سلسلة اقرأ

• العقاد

• البطولة في الشعر العربي

١٩٨١/٣٢٤٩	رقم الإيداع
ISBN ٩٧٧-٧٣٤٦-١١-٥	الترقيم الدولي

١/٨١/٥٤

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

